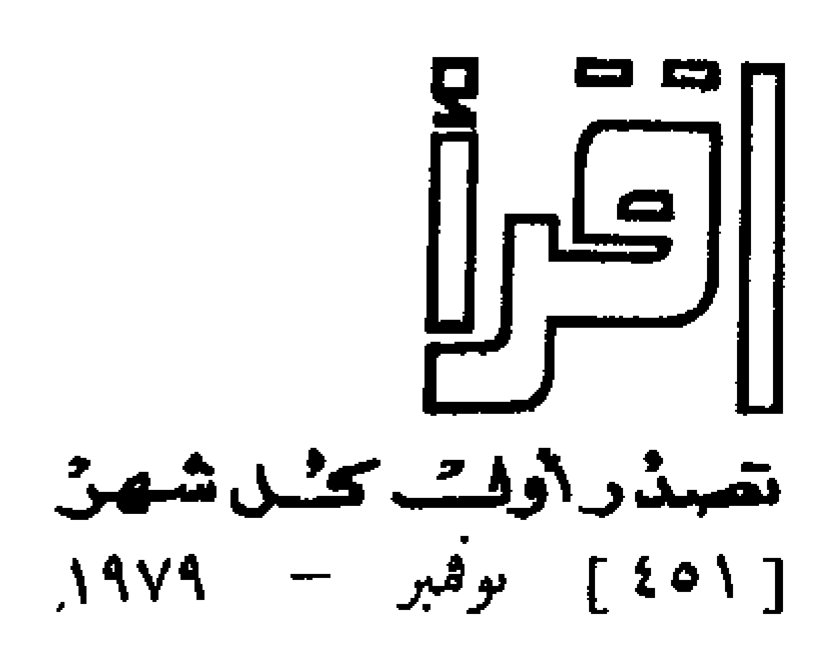
دكتور سعد ظلام

اقرأ

من دروس الهجرة





تصدر أول كل شهر
[٤٥١] نوفمبر – ١٩٧٩م

رئيس التحرير أنيس منصور

دكتور سعد ظلام

مِنْ دُرُوسْ الهِجْرة



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربَّنا افْتَح بيْنَنا وبيْنَ قَومنا بالحقِّ وأنت خيرُ الفاتِحين)

(الأعراف – ٨٩)

(ربَّنا عليْكَ توكَّلْنا وإليْكَ أَنبْنَا وإلَيْك المصيرُ)

(الممتحنة – ٤)

[قرآن كريم]



وماحوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي

فالصِّدقُ فى الغار والصدِّيق لم يَرِمَا ... وُهم يقولون ما بالغار من إرم

ظنُّوا الحمام وظنُّوا العنكبُوت على ... خير البريَّة لم تَنْسج ولم تَحُم

وقايةُ اللهِ أَغْنت عن مُضاعفةٍ ... من الدُّروع وعن عالٍ من الأُطْم

« البوصيرى »

أعْظِم بمقدمه فخراً ومنقبة ... لِمعْشر الأوْس والأحْياء من جُشم

فخرٌ يدومُ لهم فضلٌ بِذكْرته ... ماسارت العِيسُ بالزوَّار للحَرَم

يومٌ بهِ أَرَّخ الإسلامُ غرَّته ... وأدْرك الدِّين فيه ذِرْوة النُّجم

« محمود سامى البارودى »

مقدمة

العبقرية تثير كثيراً من الحسد وفضول القول ، وتثير حول صاحبها كثيراً من الجدل ، وحول تصرفاته كثيراً من التساؤلات وعلامات الاستفهام .

والأصدقاء يثيرون فضول القول بدافع الحب وحسن النية ، والأعداء يثيرهم الحسد فيثيرون مريض القول وسقيم الاتهام ، ويكثر ذلك ويحتد حول العبقرى ذاته بغض النظر عن تصرفاته ، أما تصرفاته فتثير كثيراً جداً من الجدل والخصام بغض النظر عن النظرة الفاحصة ، وإلى ماحققته من نتائج وماتبتغيه من غايات بل ربما يكون تحقيق النتائج أكبر داع للحسد ، وأكبر مثير للحقد والخصام .

فهناك ثلاث درجات للإثارة : العبقرية ذاتها ، وتصرفاتها ، ونجاحها ؛ ولايكتفى الحساد بوقوفهم وحدهم فى الميدان بل يؤلبون غيرهم ممن خلا بالهم ، فيزرعون فى نفوسهم الكره والمرارة والتعصب ، ويجمعون المشايعين لهم فى

تكتلات ؛ ليكون الحصار محكماً ،وعلى قدر عظمة هذه العبقرية ، وعلى قدر تأثيرها وبقدر نجاحها – يكون إذكاء الجدل والحسد والفضول ، بل إن العبقرية لابد أن يثار حولها الجدل ؛ لأنها عبقرية ؛ والعبقرية حدث كونى مزلزل يأتى على غير ارتقاب ، ويخرج على ناموس الحياة وقانونها ، يبهر العالم ويهزه هزًّا ، فلابد أن تلتفت الأذهان ، وتنعطف القلوب ، ولابد أن يتجه الإحساس ، ولابد أن يثار حولها مايثار حول النبوغ والعبقرية من افتئات وحقد وفضول .

العبقرية – لأنها عبقرية – مثيرة لفنون الجدل والأقاويل والإفاضة والكذب والافتئات ، وهى بما تخلقه وتبدعه وتضيفه إلى رصيد نجاحها – تضيف به أيضاً إلى رصيدها فى قلوب الحاسدين والحاقدين والشانئين حقداً وضغينة ، وحسداً وغيظاً .

أما التافهون والقانعون فليست لديهم مواهب الإثارة ، وليس فى قدرتهم وليس فى طبعهم أن يثيروا ؛ لأن ذلك فوق طاقتهم ومواهبهم : فهم يثيرون ولا يثار حولهم ؛ لأنهم عاجزون ، والعجز ضعف ؛ وهو قصور ، والضعف يثير الإشفاق والسخرية أكثر مما يثير الحسد والغيظ والتقول .

فإذا وجدت فنون القول وفضوله ، وألوان الحسد المنمق موجهة إلى شخص مشتعلة حوله – فلا يخطر ببالك أن هذا الشخص ليست له قيمة أو ليس له اعتبار ، بل على العكس من ذلك تماماً يجب أن تعلم أن هذا الشخص له قيمة وله اعتبار ، وله تأثير وله إيجابية ، وإلا فما أثير من حوله هذا الجدل ، أو نمّقت هذه الفنون المريضة من التقول .

ويقاس قدر العبقرية والنبوغ بشدة الإثارة والافتراء والافتئات وضعفها ؛ فهى مقياس لقيمة العبقرية وأصالتها ومقامها ، وميزان لصحتها وثباتها : فكثرتها دليل على قدر العبقرية ، وقيمتها وكمالها وجلالها ، وليس يعنينى التنويه بنجاح العبقرية ؛

فهذا أمر مفروغ منه ؛ فكونها عبقرية غنية عن التنويه باجتيازها واقتحامها وتجاوزها المشكلات والموانع كشلال هادر جياش . وهذا ماحدث بالنسبة إلى سيدنا رسول الله ﷺ :

فقد ثار الجدل حوله ، واضطربت فنون القول الآثم ، وكثر الافتراء والافتئات من الغرب ومن الشرق على السواء من كل ذى نفس مغيظة وقلب حاقد . وفؤاد سقيم :

فكتّاب الغرب وفلاسفته يحيكون هذه الفنون المريضة لأنهم مرضى بالحقد والإثم والتربص والغيظ الكظيم ؛

وكتّاب الشرق وفلاسفته يحيكونها إما مرضاً أو جهلاً أو تقليداً ، أو ادعاء للتحرر ، وفتح آفاق العلمانية ، وكلهم حاقد جاهل مريض .

والعبقرية – كما قلنا – كالنور تثير حولها الفراش الذى يلقى فى حواشى النور الصادق حتفه ، والحدث الكونى لايخضع لقانون الجاذبية ، بل لايعترف بها ، ولايمكن أن يحكمه قانونها .

لقد زعم المستشرقون ومن والاهم من المستغربين العرب أن الهجرة هروب وفرار من شدة الأحوال فى مكة إلى رخائها وهدوئها فى المدينة. ولما قيل لهم : إذا كانت الهجرة فراراً – فلماذا لم يهاجر الرسول العظيم إلى الحبشة وكانت أبوابها مفتوحة أمامه ؟ صمتوا صمت القبور وتلاشى قولهم هباء .

لقد أذن لأصحابه بالهجرة إليها مرتين ، ووجههم إليها ، وودعهم ودعا لهم . ولم يشأ أن يهاجر وبقى فى مكة سيفاً يناضل وحقًّا يجاهد ، ومصباحاً يكافح وحده سحب الضباب والغيم والقتام ، ويبدد حمق الكفر وجهالته ، وينشر رسالته الغراء فى الناس هداية وأمناً .

إذا ما قيل لهم : لماذا لم يهاجر الرسول إلى الحبشة إذا ماكانت الهجرة غاية فى

ذاتها ، وكان اللجوء إلى حصن أمن هدفاً مقصوداً إليه ، وبدا لهم أن يذعنوا للحق ويعترفوا به – سيطر عليهم الحسد والحقد مرة أخرى ، فراحوا يشككون فى كل نجاح ، ويثيرون الجدل حول كل فكرة تحققت ؛ لأنهم حساد والحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة ، فإن لم يستطع فليس أمامه خيار فى محاربتها ، فأثاروا جدلاً حول كل شىء وتساؤلات إزاء كل فكرة تحققت أو سنحت ولم تتحقق ، شككوا فى دواعى الهجرة ، ولما ثبت لهم كذبهم واختلاقهم – راحوا يروجون لحملتهم الضالة حول كل ما أقيم أو اقتضت الظروف إقامته فى المدينة ، فأثاروا الجدل بل كثيراً من الجدل حول المؤاخاة التى عضدت من الوجود الإسلامى فى المدينة ، وحول معاهدة اليهود مع الرسول ، وتحويل القبلة ، وحول استنقاذ أموال المهاجرين من براثن قريش ، وتعرضهم لقوافلها وحول العهد المكى والعهد المدنى وقالوا : إنه كانت للرسول شخصيتان : شخصية الواعظ العابد فى مكة ، وشخصية رجل الدولة وصاحب السلطان فى المدينة ؛ وأثاروا تقولات كثيرة حول الغزوات النبوية ، وأشعلوا نار غيظهم حول فكرة الجهاد فى الإسلام ، وزعموا أن الإسلام انتشر بالسيف أو كان السيف وسيلة انتشاره ، وحول جلاء اليهود عن المدينة ومن الجزيرة ، وحول بسط النور الإسلامى رواقه على الجزيرة ، وامتداده إلى ضلال الوثنية القابع فى فارس ، وفساد المسيحية المعشعش فى روما ، وتقويض هاتين الدولتين فى زمن قياسى ؛ وأثاروا حول زواج الرسول بأكثر من أربعٍ جدلاً كثيراً مع أن زواجه بهذا العدد كان قبل تحديد العدد بالأربع ، فلما نزل قول الله سبحانه وتعالى : (لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك)[1] وقف الرسول عند أمر الله ولم يتزوج واكتفى بمن معه ..

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

وحاشاه أن يخالف أمر الله .

أثاروا حول هذا كله جدلاً وتساؤلات ، وأغلب الظن أنه لن ينتهى الجدل ، ولن تنتهى التساؤلات مادامت العبقرية ومادام الحاسدون ؛ لأن العبقرية فى ذاتها تجذب هذا الفضول فتثيره بشخصيتها المفردة ، وبسجاحها المطرد وأعمالها السوامق الفصاح . والجدل والحسد والفضول تتهاوى فى هذا النور المشتعل تهاوى الفراش . ومنجم الذهب يكون حول التراب ، ويجثم فوقه ويتربص به ، والأصالة وحدها تفرض نفسها وتنفى الزيف : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)[1]

ويدخل فى هذا الفضول الفراشيّ ما أثاره الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) حول العامل السياسى بعد الهجرة وأثره فى تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية وما أثاره المستشرقون وما أكثرهم !

وقد حاولت فى هذا البحث المتواضع أن أستخلص من هجرة الرسول ﷺ دروساً نقتدى بها فيما عسانا أن نقدم عليه من الأمور ، وفى الهجرة دروس واعية لمن أراد أن يذّكر ، دروس فى الإيمان بالمبدأ والثبات عليه ، والنفاذ البصير لأبعاد المستقبل فى عدم الهجرة إلى الحبشة ، ودروس فى التخطيط والكتمان ، ونحن فى أمس الحاجة إليها ، ودروس فى التنفيذ والعمل الجاد المتواصل ونحن أحوج مانكون إليه ، ودروس فى القيادة ، ودروس للقادة وهم بصدد البناء وإقامة الحضارات . ودروس فى التوجيه والريادة .

وقد حاولت كذلك أن أضع تصوراً لفكرة الهجرة وأهدافها ووضعها فى مسيرة الدعوة وأثرها على مستقبل الإسلام والأمة الإسلامية ، وكيف أنها كانت فيصلاً

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

بين عهدين :

عهد من الجهاد بالكلمة والحجة ، تطاولت فيه قريش ، وصال الباطل وجال اعتداء وإيذاء وبغياً وعدوانا فلم تُجدِ الكلمة فى غوغائيين ، وكان لابد من وقفة . ولا بد من تغيير فى التكتيك والمواقف ، وكان لابد من إحداث تغيير عظيم فى الوسائل لحماية الغايات العليا والأهداف السامية ، وهذا ماحدث .

وقد طرأ التغيير الجوهرى الأساسى على الموقف كله منذ بيعة العقبة الثانية : أى بعد أن وجدت الكلمة الفاهمة أنصاراً لها وعوناَ وحماية وعزّة ومنعة .

ومنذ هاجر الرسول بدأ عهد جديد تحقق فيه الجهاد بكل أنواعه وبدأ عهد للإسلام جديد وعهد للكلمة الفاهمة والحق النبيل والرشاد الإنسانى كله ، وهو عهد – وإن اتسم بالعزة والمنعة والجهاد بكل أنواعه وصوره والتصدى والدفاع والعمل الجاد – كان العهد المكى الأساس والمقدمة الطبيعية . وكان أمرا ضرورياً للانطلاقة القوية الهائلة التى دفعت الإسلام إلى مرافئ المجد والخلود وبنت لله وللحق وللدعوة وللإسلام دولة وأمة وإمبراطورية عظمى خالدة .

ولقد كان عمر رضى الله عنه بعيد النظر عندما أرخ للإسلام بالهجرة الشريفة

غرة شوال ١٣٩٨ — دكتور سعد ظلام

٣ من أغسطس سنة ١٩٧٨

الإيمان بالمبدأ

لن تمر ذكرى هجرة رسول الله ﷺ دون أن نأخذ منها العبرة ونستلهم الرشد والهداية ، ونستوضح معالم الطريق فى محاولة التأسى بالرسول وهو يبنى دولة الإسلام الفتية ، ويشيد دعوته الناهضة ، ولا شك أن فى الهجرة دروساً نافعة لمن يريد التعرف على المبادئ الأصلية والمقومات الأساسية لبناء الدولة وإقامة نهضتها وحضارتها .

لقد هاجر رسول الله إلى المدينة خاوى الوفاض من كل شىء إلا من إيمانه بالله .. نافضاً يده من كل ما فى الحياة إلا من دينه ودعوته .. ليس معه سلاح إلا سلاح الحق .. وعزيمة لاتفتر أو تلين . ترك ماله ؛ لأنه وازن بين حبه لماله وحبه لدينه ، فاختار دينه ؛ وخلف أهله ؛ لأنه قارن بين عاطفته نحو أهله وبين عاطفته نحو دعوته فغلب جانب الدعوة ، وهجر موطنه ؛ لأنه رأى أن الدين عنده أهم

مايمكن الحفاظ عليه ، وأنه حقيقة تتضاءل أمامها الحياة والوجود معاً .

لم يهاجر من مكة فراراً بدينه من أذى قريش وعنتها كما تصور بعض أو كما يحلو لهم أن يتصوروا .. لقد جربت قريش معه كل وسائل القمع والتهديد والمساومة والاسترضاء لتثنيه عن دعوته النامية ورسالته الهادية ، ولكن إرادته وعزيمته وإيمانه وعقيدته كانت صخرة تحطمت عليها أحلامهم الباهتة ، وتكسرت عندها أمواج أمانيهم الخادعة الصفراء ! جربوا معه صنوفاً شتى من الاضطهاد ، وألواناً كثيرة من الحروب : جربوا حرب الدعاية والتشويش ونشر الإشاعات الكاذبة والافتراءات الضالة والأقوال الزائفة ، فوقفوا فى طريق قوافل الحجاج فى موسم الحج ، والرسول يعرض نفسه على القبائل ؛ لعله يجد من تتفتح نفسه للشروق . أو يهفو قلبه نحو الحق ، فيكون معه من ينصره .أو يساعده على تبليغ الرسالة ، وقفوا يشهرون به ويسخرون منه ، وينفرون الناس عن دعوته وهم ينهون عنه وينأون عنه .. وإن يهلكون إلا أنفسهم .. ومايشعرون !

وإذا كان غرضهم من الدعاية محاربة الإسلام وتعويق تقدمه وعرقلة خطاه فقد كان فى طياتها ماعجل بانتشار الإسلام .. لقد كان لها فى الوقت نفسه وجه آخر مضىء .. فقد شوقت النفوس للتعرف على الدين الجديد وعطفتها نحو غدرانه السمحة .. وحركت فيها نوازع نهمة لأخذ فكرة عنه .. فجعلت القلوب تنعطف نحوه والأفئدة تهوى إليه ولكل جديد لذّة .. والنفس أشوق ماتكون إلى معايشة الجديد .. وسواء أعلمت قريش ذلك أم لم تعلم ، فالشيء الذى نود أن نذكره أن هذه المحاولة لم تؤت ثمارها المرجوة ولم تحقق نجاحاً .. ورأت قريش نفسها إقبال النفوس على الدين إقبال الظامئ على الري ، وظاعن الحر على ظلال الدوح الوامضة وجداوله الرقراقة الفينانة .. فرأت أن تتحول من سياسة تكميم الأفواه إلى مزيج من سياسة الملاينة والإغراء .. والملاطفة والاسترضاء فعرضوا على رسول الله ﷺ

مراتب الشرف والسيادة .. وقدموا له عروض المال والجاه لعل فى هذا مايثنيه عن دعوته أو يغير من عقيدته ويلين من عزيمته ! ولكنه وهو الواثق بالله المؤمن بالحق لم ترق فى نظره تلك المساومات الرخيصة .. أو تغرّه هذه الاسترضاءات المبذولة .. ولم يغير من نفسيته ﷺ جو المودة المقنّع وبسمات الود المفتعلة وأحوال المهادنة الخادعة ! وماكانت لتلين من عزيمته أو تغير من حدته وصلابته ، بل أصر على مبدئه إصرار الحق ،وثبت عليه ثبات الشُّم .. وترفع عن سخافاتهم ترفع السماء ، فانطلقت كلماته الهادئة الرزينة الواضحة تذيب ماعرض الكفار عليه .. وتذهب به كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف شديد ، قال لهم رسول الله ﷺ : «ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً .. وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة .. وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم»

لم تُجدِ حيلهم معه ، ولم تنطل على رسول الله هذه الخدع المكشوفة ، فجن جنون القوم ، وتحولت أفكارهم الثائرة إلى أتون ملتهب يقذف بالضرام والثورة ويضطغن بالحقد والنقمة ، وذهب وفد منهم إلى أبى طالب قائلين له : إن لك منزلة وشرفاً منا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنّا .. وإنا والله لن نصبر على هذا من شتم آبائنا وعيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا فانهه عنا ، أو خل بيننا وبينه ، فأشار أبو طالب إلى رسول الله ليبقى عليه وعلى نفسه ،فظن أن عمه يخذله فقال : ياعم .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه !

ملحمة من ملاحم البطولة استمدت إلهامها من الله وروحها من خلق الرسول الكريم .. وإصرارها من حرارة الإيمان وذوب العقيدة ووقدة الشعور .. وكيف

ينزل محمد على مارأوا .. أو يجيبهم إلى ماطلبوا وهو يرى أن الكون عنده والحياة أيضاً بدون مايدعو إليه تافهة كعقولهم .. ناقصة كتفكيرهم ؟ وكيف يرضى وهو يعتقد أنه مصباح يجاهد ظلام الجهل وضباب الحقد والأغشية المتخلفة من بقايا فهم ذابل هزيل ؟ وبمقدار وقوفه بجانب الحق وحمايته للمثل بقدر مايقوى المصباح على هزيمة الظلام والضباب والأغشية المتخلفة والفهم الذابل السقيم . وماكان محمد فى تصورنا إلا نوراً : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[1]

(يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)[2] ولم يكن رسول الله ليستجيب لدعوة الإلحاد والوثنية أو يهادنها أو يقبل الحلول الوسط وماهو بمستجيب لها ؛ فالطريق واضح والمنهج مستقيم .. والله أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليقوم الناس بالقسط وما محمد إلا رسول من هؤلاء الرسل الذين اختارهم الله على علم على العالمين ، فلا مهادنة ؛ لأن الحق ليس فيه شيء إلا الحق ..ولا حلولا وسطا ؛ لأن الدين عقيدة صحيحة لاتقبل الحلول الوسط وعقيدة تدعو كل الناس للدخول فيها .. ولاترضى المفاوضة ؛ لأن القضايا العادلة لاتقبل المفاوضات كذلك .. والدين قضية عادلة تستند فى جوهرها إلى توضيح المبادئ وتصحيح المفاهيم وتحديد القيم والمثل الإنسانية ، واعتراف بربٍّ كلنا مربوبون له .. وموجد كلنا وجوده .. وخالق نحن خلقه وصنعه .. صنع الله الذى أتقن كل شيء .. ولأنها عادلة كانت لاترضى المفاوضات ولا أنصاف الحلول

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ ، المائدة

(٢) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ ، الأحزاب

ولا المصالحات !

ونجح محمد فى امتحان الإرادة والعزيمة والقدرة ، وكيف لاينجح وهو الذى جاءه قبل الهجرة بقليل (خباب) صاحبه وهو متوسد ببردة فى ظل الكعبة ، فقال يارسول الله : ألا تدعو لنا وأحسّ الرسول أن فى قالته رنّة أسى ونغمة شكوى فأقلق رسول الله هذا القول ، فقعد رسول الله محمر الوجه ، ثم قال لخباب : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ، مايصرفه ذلك عن دينه ثم طمأن (خبابا) على الدين وعاقبته فقال : وليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه !

ولما أحسوا بهزيمتهم أمام إرادته الصادقة وعزيمته الثابتة انقلبوا على أصحابه القلائل ، وصور لهم زعمهم الواهن وعقليتهم المنحرفة وتفكيرهم الساذج أن إيذاءهم سيفتنهم فى دينهم .. ويصرفهم عنه .. ويباعد بينهم وبين ربانهم السائر المشوق .. وفى زعم قريش أنهم سيأتون بنيان الدعوة من القواعد ويقتلعونها من القلوب . ويقوضون دعائمها من الأساس ، فينصرف عن الدعوة أتباعها ، وعن الرسول أصحابه الأولون وعن الدين الجديد طلائعه الهادية المهتدية ، فيكون التخذيل لمحمد ولدعوته ، فيضيع بذلك سعيه ، ويكون كالداعى فى وهاد أو النافخ فى رماد !

ولكن عزيمة الصحابة كانت شمساً أذابت تحت وهجها الصامد الملتهب قتام المنى وضباب الفكر وثلوج الأمل والأفكار ، والشمس تظهر فى الأفق ضاحية الوجه ، فتمس الكون تيارات من الدفء الوامض وأنفاس من الحيوية الناشطة والتماعات من الأضواء التى تمسح كدح الحياة وتغسل أدران الجو وتنضج حرارتها مراحل الكفاح ..

وكذلك كان الصحابة وهكذا كان وقوفهم فى معمعات الحوادث : عزيمة أنضجتها حرارة الإيمان ، ونور من التنزيل والفرقان ، وثبات من العقيدة والتشريع ، وآيات من الوحى المهيب تملأ قلوبهم ، فينسون فى ذوبها روحهم وقلوبهم ودنياهم .. ويذيبون فى وهجها نفوسهم وأجسامهم ، فلا يحسون أمام معترك الحياة بضجر ولايلمسون من الأذى إلا مناجاة حانية تدعوهم إلى محراب الصفاء الأطهر والنقاء الأقدس ، فيغمسون الأجسام المخدوشة والنفوس المنهوشة فتهدأ جراحاتها وتسكن ..

ورائدهم رسول الله :

لقد تحرش به الكفار : آذوه ، أدموا قدميه كادوا له .. استفرغوا طاقاتهم لكامنة وحقدهم الأسود ، فأغروا به نساءهم وعبيدهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة الدامية عبر الطريق .. فى مجيئه ومراحه ومسائه وصباحه ، فلم تنفجر فى عينه دمعة باكية أو تنبعث من قلبه زفرة شاكية .. إلا لله وحده ، فما كان ألذ عنده أن يبعثر آثار الألم ، ويغسل قلبه وجسده الداميين بدعوة تائبة وهمسة من النجوى منيبة إلى الباري سبحانه : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى .. وقلة حيلتى وهوانى على الناس ياأكرم الأكرمين .. أنت رب المستضعفين .. وأنت ربى ؛ إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى .

وهكذا سار الصحابة مسار نبيهم ولهم به القدوة وحسن الأسوة

لقد رماهم الكفار بالصخر الملتهب فى القيظ ، وبالحقد الأشد التهاباً من قلوبهم ، وألقوا فوقهم الحديد المحمى فى النار .. وجروهم فى دروب مكة على الأرض فى بطحائها وشعابها فى وهج الشمس ، ولكن كان إيمانهم بالله كإيمان رسولهم — أكبر دائماً من الألم وأقوى من الإيذاء وأشد من التحمل .. والمؤمن

الصادق فى إيمانه الذائب فى حرارة دينه وأشواق عقيدته يرى فى الأذى الواقع عليه سعادة ؛ لأنه فى الله ؛ ويحس فى الألم لذة ، لأنه فى سبيل دينه ؛ ويتذوق فى الإساءات طعماً يجعله يرتفع بإحساسه فوق مستواها .. ويسمو بنفسه فوق لسع الأذى ووقع الخطوب !

ولقد هاجر الصحابة إلى الحبشة فراراً بدينهم والتماسا لأفق متسع ينشرون فى جوّه كلمة الحق ودعوة الإسلام .. لكن القرشيين هالهم أن يسمعوا للكلمة الفاهمة ، وهالهم كذلك أن يستمع غيرهم إليها أو على الأصح : لقد خافوا أن يُنْهِضَ إلى الدين نفوساً تتلقاه بالتقبل والاستحسان فى الحبشة ، فأرسلوا وراءهم رسولين منهم ومعهما هدايا للنجاشي ملك الحبشة ؛ ليوغر الرسولان صدرَ النجاشي عليهم ، فيرجعوا من حيث أتوا ، فتوصد دونهم أبواب العلاقات ، وينسد فى وجوههم طريق النمو السياسى والعقائدى ، فلا يؤمن بهم أحد ، ولايعترف بقضيتهم العالم الخارجى ، أو يسمع عن دعوتهم الإنسانية الرشيدة فيغلق أمامهم أبواب العالم الحر ، فلا تثبت دعوتهم وعقيدتهم النامية ، ولا يتأكد وجودها فوق مسرح الحياة ومنبرها الواسع المدى ، ولاتنتشر دعوتهم فى الآفاق .

أذن الله لدينه أن يجد متسعاً فى قلب النجاشي ومتنفساً لشعور غامض يخفيه .. أذن الله لدينه ، فوجد قلوباً رحيمة تمنعه من دهاء قريش ودهاتها .. فاستقرت آياته فى قلب النجاشي برداً وسلاماً ، فطرد سفيرى قريش وردّ هداياهما .. وأذعن لأمر الله ، فلقى عنده المسلمون خير منزل ، وكانوا عنده فى ملاذ آمن

طرد النجاشي سفيرى قريش مؤذناً باعترافه بهذه الدعوة .. وكان ذلك كفيلاً بأن يؤلب الكفّار على رسول الله ﷺ وصحبه من جديد .. لكن ياترى ؟ ماذا يريدون أن يفعلوا ؟ وماذا هم فاعلون وقد جربّوا صنوفاً لا حصر لها من اللؤم الماكر والخبث العنيد ؟ ماذا تقصد قريش أن تفعل وقد أشغلت ألواناً كثيرة من الاضطهاد

وشيئاً غير قليل من اللؤم والدهاء ؟

لقد أكل الحقد قلوب الزعماء منهم ، وباض وأفرخ ضراوة على الإسلام ومعتنقيه . .

هداهم التفكير المضطرم بالثأر المطلول بالأحقاد أن يشعلوا حرب التجويع وسياسة الحصار الاقتصادى ، فاجتمعوا وعقدوا معاهدة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب فلا ينكحون إليهم ولا ينكحونهم . . ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم . . وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا . . فلا يصل إليهم شىء إلا سرًّا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش . . وشق الأمر على الرسول وعشيرته حتى كانوا يأكلون ورق الشجر . . ولكن الله سلم ، فتبعثرت وسائل الحرب فى الميدان نفسه الذى أشعلوا فيه الحرب ؛ إذ قام ثلاثة رجال من أشرافهم ، فنقضوا الصحيفة ، وكانت الأرض قد أكلتها ، ولم يبق منها إلا لفظ « الله » .

ضاعت فرصة قريش السانحة ، وخسرت معركة الحرب الاقتصادية التى هى حرب التجويع والإذلال ، وهى حرب أشد وطأة وأضرى ألماً ، وخاب سعيهم وتبخرت آمالهم العجاف على الصحيفة نفسها التى قد أثبتوها فى جوف الكعبة وفاء عهد وميثاق .. ومن قبل خسروا معركة الحرب السياسية مع النجاشى ومعارك الدعاية وتكميم الأفواه والقهر وسياسة الملاطفة والملاينة وعروض الجاه والسيادة .. فماذا تبقى فى كنانة قريش من سهام الغدر والمكر ؟ . ماذا يخبئون من شر ؟ وماذا يضمرون من كيد ؟ ماذا وقد ذهبت كل وسائلهم هباء ، وذهبت أمانيهم أدراج الرياح ؟ . ولم تزل آثار هزائمهم ماثلة تدمغهم بالخيبة والخسران . وتؤرث فى قلوبهم الحقد والأضغان والامتهان .

أخيراً وليس آخراً طاش سهمهم ...وضل صوابهم وأخطئوا التقدير فمالوا إلى سياسة الغوغائية والمنحرفين ، واتخذوا من آخر سهم لهم مرسى ظلمهم ومباءة

ظلامهم ، فعمدوا إلى الاغتيال والتصفية الجسدية وهذه ثالثة الأثافى ، ونهاية المطاف ، وآخر ما فى جعبتهم من دبلوماسية خرقاء وسياسة حمقاء ، ونوايا حاقدة . . فاجتمعوا فى دار الندوة وقرروا قرارهم الآثم بقتل محمد ﷺ ، ليخلو لهم الجو ، وتستريح أفكارهم الثائرة الهوجاء : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)[1]

---

(١) التوبة الآية ٣٢.

الثبات على المبدأ

وقفنا فى موضوع سابق عند تفصيل تاريخى لما حدث للرسول فى مكة ، وكيف تعرّض هو وأصحابه لألوان الاضطهاد والإيذاء من المشركين ؟ وكيف ثبت إيمانهم وربط على قلوبهم ؟

ولقائل أن يقول : مالنا ولهذه التفاصيل الطويلة العريضة التى لاتدخل أصالة فى صميم مانحن بصدده من محاولة معايشة الرسالة الإسلامية فى مراحل بنائها المظفر فى عاصمتها (الثانية) (المدينة) ؟ مالنا ولهذه القضايا المتداخلة التى تنسج صورة لحياة رسول الله فى مكة .. ونحن فى بلد النور (يثرب) الخضراء ، أو على الأقل نحاول أن نبدأ من حيث دخل أرض يثرب ؛ لنمارس فى أعماله فى معقل الإسلام الجديد فهمنا لوجود الدولة الإسلامية وعوامل وجودها وعناصر بقائها وما أرسى بناءها من قيم أصلية وتفكير عملى .. وتخطيط منظم ومنهج مدروس قاعدى

وعقائدى ؟ ثم ما الذى حدا بنا أن ندخل فى فصول التاريخ المثيرة التى حدثت بمكة الفيحاء .. ونحن هنا فى معرض الحديث عن دواعى النمو المضطرد وأسباب التقدم المتزايد والنهضة البناءة للدعوة الإسلامية فى محيط مرساها ومستقرها الحديثين ؟

وجوابى على هذا السؤال أن كل فكرة من الأفكار التى ذكرناها آنفا ترسم عنصرا من عناصر الموضوع ، وكل حدث يشير إلى ملامح هامة .. وجوانب مضيئة فى القضية وتمس جوهرها .. وربما تلاقت هذه العوامل مجتمعة ؛ لتمثل خيوطاً مختلفة تكون فى مجموعها صورة للأجواء التى صفقت فيها أجنحة الدعوة ورفرف على أدواحها شدوها الوامض المثير .. وتكونت فيها أفراخ الفكر المسلم ، وتربت بداثيات العقيدة .. وتمثل هذه الأجواء بيئة الرسالة المقدسة من يوم أن أشرقت أضواء الحق فى حراء النور وماتلاها من طلائع الوحى المهيب ومراحل الدعوة فى سرها وجهرها ومالاقى الرسول فى سبيلها من عنت أو تحمل من مشقة وإيذاء .. ومن حوله أصحابه يفدونه بكل مرتخص وغال .. طريق مضرج بالدم إلا أنه فى سبيل الله محفوف بالمكاره إلا أنها من أجل رفعة الحق وإعلاء رايته وخفق بنوده ، وسبل مطلولة بالدموع مفروشة بالقتاد ، مفروش على جانبيها الشوك والأذى والألم .. غير أنها فى الوقت نفسه صورة كفاح ودرب نضال .. ولابد لمن يريد تمحيص الحقائق وتحديد المفاهيم وتوضيح المبادئ أن يبين السبيل، ويكشف الستار عن الماضى ليطل من شرفته على نور المستقبل وهوادى الغيب وإشراقة الغد .. وتبدو من نوافذه معالم الحياة المقبلة البعيدة المغيبة .. أو ليس لكل ذلك – دخلٌ فى الموضوع وله تأثير فى مفهوم الأوضاع التى نحن بصدد الحديث عنها وشرحها وتوضيحها ؟

لاشك أن كل ذلك أسباب وثيقة الصلة فيما نحن من أجله نحاول الحديث ..

ومادمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة من القول يحق لنا أن نقول : إن موضوعية الموضوع والتفكير المنظم والمنهج العلمى ، كل ذلك أمور تستدعى معرفة ما كان قبل التعرف على ماسيكون .. ومن هنا كان لا بد للطبيب أن يبحث كل الجوانب التى ترشده عن المرض ، أو تضع يده على الموطن الذى يكمن فيه الداء ، أو يعطيه فكرة كاملة وواضحة عنه فى الوقت نفسه حتى يختار على ضوئها وهداها أنجح الوسائل وأضمنها للعلاج .

والوضع والواقع الاجتماعيان يقرران التعرف على البيئة التى كان فيها الإنسان لمعرفة ماقد يؤثر عليه فى مهاجره، أو يتأثر هو به فى بيئته الجديدة .. فالإنسان عنصر اجتماعى قبل أى شىء آخر .

ولنا قبل ذلك وبعده أن نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن بدعاً من الرسل : (قل ماكنت بدعا من الرسل)[1] .

ولم تكن دعوته هى الدعوة (الوحيدة) التى وقف منها أعداؤها هذا الموقف العدائى المشين .. فقد وقف الرفاق له من قبل يرودون الناس إلى الطريق القويم ويهدونهم إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولكنهم وقف فى طريقهم المكذبون الضالون ، وكان بين هؤلاء الرسل ومن تبعهم وبين هؤلاء الملاحدة جولات اتسمت بالصدق والإصرار : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وماستكانوا والله يحب الصابرين.وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم

---

(١) الأحقاف الآية ٩.

الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)[1] .

وكان هؤلاء الرسل مثار الدهشة والإعجاب والصبر ، وأولى بأس شديد وعزم أكيد ، فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل . .

بل لنا أن نقول : إن كل دعوة جادة وكل فكرة هادفة . . وكل رسول أو مصلح أو مفكر ذى مبدأ وعقيدة . وقف منه ومن دعوته ودون رأيه وفكرته رهط الشرك والوثنية ودعاة الإلحاد والإباحية : يدعو فيعرضون . . ويبلغ رسالة ربه فيتربصون به الدوائر وينهض بقومه فيكون الازورار والإعنات ! وينصح لهم فيكون التربص والترصد والوثوب ، ويجمع المؤمنين بفكرته حوله فينهضون إليهم ينفضونهم عنه ويقصونهم عن دعوته . . فإن رأوا فيهم إيماناً بالدعوة وإخلاصاً للفكرة أو لمسوا منهم ثباتاً على عقيدتهم ووقوفاً بجانب الحق وإصراراً على نصرته بدءوا معه سلسلة الخشونة والاعتداء والتآمر والإيذاء ،وفرشوا طريقهم وطريقه بالزجاج والأشواك ، وضرجوه بالدموع والقتاد والدم والاضطهاد ، والأصالة وحدهاهي الكفيلة بتثبيت أركان هذه الدعوة وتدعيم كيان ذلك الداعية فى قلوب الناس : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)[2].

كل أمة ناشئة وكل دولة نامية يصب المعتدون عليها وابل الأحقاد ، ويرمون فوقها أتون الغضب ، وترتمى فوقها الحمم واللعنات .. وأول ماتحاول النهوض بمقدراتها وتحمل مسئولياتها واشتمام أنفاس حريتها وكسر قيود التبعية .. من أول يوم تصحو فيه لتعانق بشائر الشمس وتحضن أضواء الفجر وترتفع راية الحق والإشراق .. ومن أول يوم يقوم رائد من روادها مطالباً بالحرية والعيش الكريم له

---

(١) آل عمران الآيات ١٤٦ – ١٤٨.

(٢) الرعد الآية ١٧.

ولشعبه المستكين وأمته المستذلة – من أول يوم يقف منه ومن دعوته أفّاقوا الشعوب وممتصو خيراتها ومغتصبو ثمارها وجناها ، يقفون منه موقف الحاقد المستريب والغاصب الغضوب ، ويشعلون حوله النار من جميع المنافذ ، ويضيقون عليه الخناق من كل الجوانب ويبدءون معه سلسلة من حروب مختلفة تتدرج فى سلم الأحداث تبعا لتدرج الداعية وتفوقه فى الدعوة وفنائه فيها .. وتشتعل تلك الحروب ضراوة حتى تتلاقى جميعاً لتمثل غلاً ضخماً يكتم أنفاسه ، ويغل قضيته ، ويخنق صوته وقد يحدد مصير دعوته ومصيره أو يئدهما !

وربما كان للأعداء خبث ماكر وخبرة لئيمة ، وقد تكون لديهم قدرات وإمكانات ، فتكون الخشونة أقسى والعداء أنكى والخصومة أشد .. وقد ينتهج العدو فى ذلك نهجا يختلف اختلافا يسيرا عما اتبع مع سيّد الخلق عليه الصلاة والسلام من تحرشات ومضايقات إلا أن الأعمال والنتيجة غالباً ماتكون واحدة وإن اختلفت التعابير والأساليب .

وأول مايجرب العدو من ألوان العداء حرب الدعاية ؛ كما فعلت قريش مع رسول الله فى موسم الحج باعتبار أن الدعاية تحمل الرأى وتدافع عن الكيان .. فلا يؤيدونه فى الرأى أو يعترفون بدولته فى المجال الدولى أو المنابر العالمية .. وربما اتخذوا من وسائل الإعلام دعايات مغرضة تثير من حوله السموم ، وتذيع من حوله الأباطيل وتلفق التهم والشائعات ، ثم يجربون سياسة الإغراء واشتراء الذمم إن كان ممن يعشقون المال والجاه أو يستهويه بريق الشرف والسيادة ..

أما إذا أصر المناضل وثبت الداعية فى موقف المساومات والملاطفة ، ولف هذه العروض كتلة جامدة ضرب بها وجوههم ، وأثبت أنه فوق مستوى السفاسف – فقد انتقلوا إلى سياسة القمع والتهديد فصبوا جام غضبهم عليه وعلى أتباعه وذوى قرابته وكلما ازداد إصراراً ازدادوا إضراراً والتجئوا إلى سياسة المعاهدات الاقتصادية

والأحلاف العدوانية وحرب التجويع أو كما يسميها البعض الحصار الاقتصادى ؛ ليشنقوا دعوته فوق أعواد الطمع والجشع والحقد والغرور ، ويخنقوا صوته المدوى فى أفق العالم بالكلمة الهادئة والحق الواعى الهداف .. فالحرب الاقتصادية فيما تعرف الإنسانية أشد الحروب ضراوة وأقساها بأساً وأشد تنكيلاً ..

وتأتى بعد ذلك مرحلة غوغائية ملعونة ، مرحلة تحجر العاطفة واحتقان الجو بالكراهية والأضغان ، فيكون الاغتيال ومؤامرات القتل وسفك الدماء وانتهاج شريعة الغاب فى التصفية الجسدية .

تيارات من الصراع العنيف وسحائب غائمة من الظلام والظلم ، وألوان من العناد اللئيم الماكر الخبيث . . وبالصمود أمام كل هذه المحاولات وبالإصرار والثبات – تنكسر أطماعهم فوق صخرته الصلبة ، وتتفتت أحلامهم على صلد إصراره الرائع وثباته العظيم .

اتفقت قريش على اغتيال رسول الله فى مؤامرتها العدوانية فى دار الندوة ، ولم يكن لرسول الله إزاء هذه المؤامرة الغادرة إلا الله يرعاه ويعصمه ، (والله يعصمك من الناس) . فماذا يفعل محمد وليس له بهم طاقة ؟ وماذا يعمل والموقف عسير ، وكيف يكون الخلاص وماله بهم من سبيل ؟

أخبره الله سبحانه وتعالى بما أضمروا من غدر وما دبّروا من مكيدة ، وماقرروا فى مؤتمرهم الباغى من تآمر على حياته واتفاق على اغتياله .. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .. أخبره الله بما صمموا على تنفيذه وما استقروا عليه ، وأوحى إليه بالهجرة متخفياً تحت جنح الليل وأستار الظلام .

الهجرة بين الحبشة والمدينة

الهجرة بين الحبشة والمدينة المنورة هى عنوان هذا البحث ، وهى موضوع له قيمته وهو جدير بالبحث والدراسة .. وقد يبدو للوهلة الأولى أنه لا أهمية له فى بنائية الأحداث ونموّها وأصالتّها ، ولكنه من العمق والموضوعية بحيث يمكننا القول فى غير غرور ولا ادعاء : إنه كان يتوقف عليه أمر هذا الدين ومستقبله وحقيقته . . ولابد أن الرسول راوده هذا التساؤل وعايشه وعمقه بحثاً بفكره وعقله وقلبه . وقارن واستقصى الأسباب واتخذ قراره بالهجرة إلى المدينة وهو مدرك تماماً لغاية الهجرة وأهدافها .

ذلك لأن الهجرة لاتراد لذاتها .. على معنى أنه لايمكن أن يتصور أحد أن إنسانا كائناً من كان يريد أن يهاجر أو يخطر بباله أمر الهجرة .. أو يجعله يخطر بباله مجرد خطور على البال من مكان إلى مكان تاركاً أهله ومريديه وأصدقاءه ومحبيه

وبلده وذكرياته وعمره الماضى والآنى لمجرد أنه يريد الهجرة ؛ إذ إن لكل هجرة هدفاً ، وبقدر هدف الهجرة وغايتها من التسامى والنيل من عدمها يمكن أن يحكم على الهجرة وعلى المهاجر فى الوقت نفسه بعد النظر إلى ماتفيأ من غايات أو حقق من أهداف .

وقد تكون الغاية نشدان آفاق من الحرية أرحب .. وقد يكون الالتجاء إلى مكان بعيد فيه الرزق أكثر وأوسع .. وقد تكون الهجرة نوعاً من تحليق النسور ؛ كما يراها إيليا أبو ماضى فى تعليل هجرته إلى أمريكا .

والرسول ﷺ لم يكن ينشد الهجرة إلا لغاية سامية ، ولم يكن يهدف إليها إلا من أجل الحرص على الدين الإسلامى فى أن يكسب موقع انطلاق ووثوب جديد .. بعد أن بحث موقف الإسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة ولم ير من المكيين تفاعلاً معه ولا إقبالاً شديداً عليه ، بل على العكس من ذلك رأى تعصبهم عليه .. وكتمهم أنفاسه والتصدى له ولأتباعه .. حتى لايكسب موقعاً ولا يحرز أنصاراً .. لأنهم رأوا فيه خطراً هائلاً على مصالحهم وكياناتهم .. فوقفوا يصدون عنه ، ويؤذون أتباعه ما وسعهم إلى ذلك الإيذاء ؛ حتى عرض الرسول على أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة التجاء إلى مأمن وفراراً من الأذى وخوفاً من فتنة .. ولكنه لم ير ولم يشأ أن يهاجر معهم إلى الحبشة .. وبقى ينافح الشرك ويكافحه ، ويعرض نفسه على القبائل ؛ حتى قيض الله له الأنصار فى المدينة ، فآمنوا وبايعوا الرسول على العزة والمنعة لو أنه هاجر إليهم .. وعلم المكيون فكثفوا من عذابهم .. وزادت من حمقهم وطمعهم أكثر وأكثر وفاة وزوجه . وسنقف مع الرسول فى أقواله وأعماله ، لنتبين : لماذا لم يهاجر إلى الحبشة؟ ولماذا وآثر الهجرة إلى المدينة؟ وما أجمل أن نستعرض قول الرسول عليه الصلاة والسلام عندما عرض على المسلمين الهجرة إلى الحبشة وقوله عليه السلام عندما أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، ثم ندرس الحبشة

ومكة والمدينة دراسة جغرافية وإستراتيجية لنعرف الإجابة على هذا التساؤل الخطير.

توجيه وتوجيه :

عندما أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة قال لهم : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد .. وهى أرض صدق .. حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه» .

يقول ابن هشام معقباً على قول الرسول هذا بقوله : فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام»[1] .

وعندما أذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة قال لهم :

(إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنون بها)[2]

ويمكننا من خلال معايشة صادقة للتوجيهين أن نقارن بين موقفين للرسول ﷺ وأن نتبين الفروق الهائلة بين موقع الهجرتين من الدعوة الإسلامية ومن نفس الرسول المتألمة وتخطيطه لمستقبل الدولة والدعوة الإسلامية :

فالتعبير «بلو خرجتم إلى أرض الحبشة» لايصدر إلا عن نفس متألمة ضائقة بالوضع حزينة على ماوصلت إليه الأمور .. وإذا عرفنا أن الرسول كان يكره التعبير «بلو» وينهى عنه ، لأنها تفتح عمل الشيطان – فإن التعبير بلو بما تفيده يعطينا أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما أذن لهم كان إلى جانب تألمه لم يكن يرى أن الحبشة موطن إقامة أو دار هجرة أصلح .. ولكنه رآها دار التجاء ربما تكون أحوالهم فيها أحسن من أحوالهم الراهنة فى مكة .. ولهذا أذن لهم فى الهجرة إليها خوفاً من الفتنة

---

(١) و (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٠ وجـ ٢ ص ٨٠ .

وتوقعاً للفرج وخروجاً من الأزمة .. وتلمساً للأمل وفراراً بالدين وجاء إذنه على صيغة الإباحة لمن يريد دون أن يأمرهم .. أذن لهم أن يهاجروا حتى يحدث الله أمراً كان مفعولاً .

وكان جاه ملك الحبشة وما عرف عنه من حماية للغريب هما المأمن الذى طمع فيه الرسول وركن إليه المسلمون .. لأن الرسول قال : إن بها ملكاً لايظلم عنده أحد .. ولم ير الرسول شيئاً فوق هذا .. ولم يطمع فى غيره ، ولم يخطر على باله أن الحبشة أصلح من مكة من ناحية الدعوة ومستقبلها ؛ وإنما من حيث خوف الفتنة – وقد فتن بعضهم – ومن حيث الأمن وقد بعثت إليهم قريش من يستردهم .

أما التوجيه الآخر فنلمس الثقة والتفاؤل والأمل فى المستقبل فى كلام الرسول والأمن هنا جعله الرسول فى الإخوان الذين عاهدوه على النصرة والحماية والعزة والمنعة والتكافل الذى أشار الرسول إليه عندما قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم .. وأنا كفيل على قومى يعنى المسلمين .. قالوا نعم[1] بما تدل عليه الكفالة فى قمة ما عرف عنها وهى كفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فى دار الأمن التى يأمنون بها .. وقد حمل هذا كله تأكيداً فى الكلام ،واسمية الجملة و « قد » وتقديم الجار والمجرور « إن الله قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنون بها » والتأكيد بأن واسمية الجملة قمة الثقة .

ومن هنا كانت النظرتان مختلفتين .. والتوجيهان مختلفين أيضاً وكانت الهجرتان مختلفتين تمام الاختلاف فى الغاية والهدف والاتجاه والأمل وفى الإنجاز والمستقبل والمصير .

أما لماذا لم يهاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الحبشة مع أنه هو الذى وجه

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٦ .

أصحابه إلى ذلك ودعاهم إليه بعد أن اشتد البلاء بهم. فذلك ناتج عن وجهة نظر بعيدة جداً وسديدة جداً : فالرسول كان فى منعة من قريش وهو فى حماية عمه أبى طالب الذى أقسم له أنهم لن يصلوا إليه بجمعهم وفى حماية زوجه ورعايتها ، أما أصحابه ، أما المسلمون المستضعفون فالأمر غير ذلك تماماً .

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يرى الهدف الأساسى من الهجرة مجرد الالتجاء من الظلم إلى مأمن .. ولو كان هدفه ذلك لكان من المحتمل أن يهاجر مع أصحابه .. ولكنه لم يفعل وظل فى مكة يتحمل الأذى والاضطهاد ، ويعرض نفسه على القبائل وفى موسم الحج حتى استجاب الأوس والخزرج فى بيعتى العقبة .. فكانت هجرته إلى المدينة ، وهى هجرة داخلية فى الجزيرة العربية .

والحبشة مع وقوعها فى شرقىّ أفريقية وقربها من مهد الإسلام وغناها النسبى لم تكن فى عصورها التاريخية منطقة انطلاق فى أفريقية ؛ وإنما كانت فى الغالب منطقة انزواء وعزلة .

ويذكر سير وليام موير معلقاً على عدم هجرة الرسول إلى الحبشة قائلاً : لو لم يتوافر للإسلام مهجر فى المدينة فربما هاجر النبى إلى الحبشة .. وهنا كان من المنتظر أن ينزوى الإسلام ويتحول إلى مذهب مسيحى قصير العمر مآله الانقراض »[1]

لقد استعرض الرسول الموقف من كل جوانبه ، وعمقه بحثاً وفرض جملة من الافتراضات سأل نفسه : مامصير الدين العربى فى بيئة غير عربية ؟ هل سينمو أو تتواطأ عليه الإمبراطورية الرومانية فى الحبشة ؟ من سيقبل على حفظ القرآن العربى من قوم لسانهم غير عربى ؟ ما عدد هؤلاء الحفظة مع تباين اللغات واختلافها ؟ ثم هل يمكن أن تكون الحبشة وهى مناطق عزلتها الأنهار ومزقتها إلى مجتمعات منعزلة –

---

(١) قيام الإسلام د . عبد العزيز كامل دراسة فى الجغرافية التاريخية مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية ٦٠/ ١٩٦١.

هل يمكن أن تكون قاعدة وأساساً للتماسك ؟ وكيف ينظر العرب فى جزيرتهم إلى الإسلام عند عودتهم إلى مهده الأول ؟ وهل من السهل عليهم أن يقبلوه والطبيعة العربية لها مزاجها الخاص .. وحريتها التى ألفتها طول حياتها جعلتها تأنف من كل ماهو دخيل عليها أو أجنبى عنها ؟

لهذا لم يهاجر الرسول من مهد الإسلام إلى منطقة الالتجاء التى لاتصلح أن تكون منطقة انطلاق .. وذلك لأن الرسول أدرك جيداً أن الانطلاق الحقيق للإسلام يكون من الجزيرة العربية أو بالأحرى من مكة قلبها النابض ؛ لأن مكة حباها الله من الميزات مالم يحبه غيرها ، فكانت إلى كونها قلب الجزيرة العربية لم تخضع للنفوذ السياسى الأجنبى .. إلى جانب سهولة التنقل وبعدها عن أطماع الطامعين ، والأمن الذى هيأته لها رحلتا الشتاء والصيف .. وكانت على علم ووعى بالسياسة العامة والعلاقات .

لهذا آثر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبقى بها ؛ ليتابع نمو الإسلام فى مهده الأول ، وينزل القرآن عربياً بلغة العرب وبلسانهم ، فيكون إعجازاً يزوعهم فتحدث المعجزة .. ولهذا بقى فى هذه البيئة العربية ؛ لتكون ولتظل قاعدة انطلاق للإسلام .

والذى لاشك فيه أن بقاء الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة دون تحقيق تفاعل كبير نحو إيمان العرب فى مكة وانعطافهم نحوه جعله يفكر فى نقطة انطلاق أخرى على أن تكون محصورة فى دائرة الجزيرة العربية وتكون عمقاً إستراتيجيا للدعوة .. وقد حدث أن فتح الله قلوب الأوس والخزرج للإسلام .. وقويت شوكة المسلمين .. وبايعه الأنصار البيعة الأولى وتسمى بيعة النساء .. ثم البيعة (الثانية) التى بايعوا الرسول فيها على أن يمنعوه من كل مايمنعون منه نساءهم وأبناءهم .. وقد حضر العباس عم النبى ﷺ هذه البيعة وكان لايزال على دين قومه .. إلا أنه

أحب أن يستوثق لابن أخيه فقال لهم : «يامعشر الخزرج .. إن محمداً منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه .. فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده .. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ؛ فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ؛ فقالوا قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله فتلا القرآن .. ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مماتمنعون منه نساءكم وأبناءكم »(١) فعاهدوه ووثق أن يمنعوه وينصروه .

أذن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة . . فبادر الناس إلى ذلك وخرجوا أرسالاً متتابعين ، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله وأبو بكر وعلىّ أقاما بأمره الشريف . . وإلا من احتبسه المشركون كرهاً . . وخافت قريش خروج الرسول ولحاقه بهم فيشتد عليهم أمره فاجتمعوا فى دار الندوة ، ودبروا أمر قتله وقد أعد الرسول جهازه انتظاراً للإذن بالهجرة . . وأعد أبو بكر جهازه للإذن بالهجرة إلى المدينة . . وكان كلما استأذن الرسول استمهله قائلاً : يا أبا بكر ، لعل الله متخذ لك صاحباً .

ومن هنا نجد الرسول يفرق بين هجرة الإيواء والالتجاء إلى الحبشة ، وبين الهجرة إلى المدينة التى هى هجرة انطلاق .. ورضى لأصحابه وأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة أمناً لهم وحماية من الظلم ولمعتقداتهم من الفتنة .

كانت الهجرة عربية لم يترك فيها الرسول الجزيرة العربية إلى بيئة أخرى كما فعل

---

(١) سيرة ابن هاشم جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

أصحابه حين أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ؛ لأن مكة كانت لها كل مقوماتها الطبيعية والبشرية التى أهلتها لزعامة العرب وفيها نشأ الإسلام .. ولكنها لم تكن الموطن الذى تقبل الإسلام فى سماحة ويسر ، مما دعا النبى أصحابه إلى الهجرة منها ، وكانت حرماً آمناً ، ولهذا لم تكن بحاجة إلى تخطيط على أساس دفاعى ، وقد كانت وحدة القبيلة أساس التشدد فى الدين .. وقد رأت فى الدين الجديد تهديداً خطيراً يهدد وضعها الدينى ومنزلتها الاقتصادية ووحدتها الاجتماعية ، ورأت فيه ثورة كاملة على النظام المستقر الذى تنعم به ..

وكانت المدينة وهى على محور الواحات تمتد من اليمن إلى الشام إلا أن هناك فروقاً واسعة طبيعية وبشرية بينهما : فاقتصاد مكة كان دينيًّا تجاريًّا فاجتمع رأيها وتواحدت كلمتها على هدف الدين والتجارة ، وكان اقتصاد المدينة زراعيًّا .. لكن التكوين البشرى أعدها عقليًّا لقبول الإسلام .. وإن لم يعدها لتكون على رأى واحد .

والإجابة على السؤال (الثانى) وهو متى وكيف فكر الرسول فى الهجرة إلى المدينة ، الإجابة تتصل بمعرفة الرسول العميقة بتكوين المدينة البشرى والزراعى . . والأرض والإنسان هما العنصران الرئيسيان الضروريان فى أية دراسة .

لقد استفاد سكانها من مواردها المائية وجودة تربتها ، فجعلوها واحة زراعية تشتهر بالنخيل والبساتين .. ولم تكن المدينة قبل دخول الإسلام تتمتع بأنها حرم الله .. ولهذا كانت لابد أن تفكر فى حماية نفسها .. فخططت مبانيها على أسس دفاعية وانتشرت فيها القلاع والحصون والآطام .

والتكوين القبلى للمدينة قبل الإسلام يختلف عنه فى مكة .. فقد سكنتها قبائل من اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .. وقد سيطروا وسادوا أول الأمر .. ولكن عندما هاجر عرب الجنوب بعد تحطيم سد مأرب واتجه الأوس

والخزرج شمالاً واستقروا فى المدينة وقامت بينهم وبين اليهود حروب ساد الأوس والخزرج فيها . ولم يكن التماسك والتضامن الاجتماعى سائداً فى المدينة .. فقد كانت الحروب والتوعد بين الأوس والخزرج من جهة وبين اليهود من جهة أخرى ، وبين الأوس وبين الخزرج حروب وقتال .. حاول بعض المغرضين إشعالها حتى بعد قدوم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأطفأها الرسول قائلاً : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ ولهذا كان لكل قسم من أقسام المدينة منازله وحصونه ومع ثرائهم العظيم - لم تتوحد كلمتهم ، واستنزفت الحروب كل مواردهم الاقتصادية .

أما الناحية الدينية فاليهود أهل كتاب ، وكانوا يتوعدون ببعثة نبى قد قرب زمانه يقتلونهم معه قتل عاد وإرم .

وكانت الأوس والخزرج من عرب الجنوب الذين يدينون لقريش بالزعامة .. إلا أن موقعهم فى المدينة أعطاهم نوعاً من التحرر العقلى وحرية أوسع فى تحديد موقفهم من اختيار الإسلام .. وقد أثار فى نفوسهم ماسمعوه من اليهود عن بعث الرسول الذى يتواعدونهم بقتلهم معه .. وكانوا يحجون البيت بمكة .. فلما سمعوا عن الرسول وعن سماحة دعوته آثروا أن يسبقوا اليهود إليه .. وكان الخزرج أسبق من الأوس إلى الإسلام .. وكانت البيعة الأولى فى العقبة كلها من الخزرج .. وحضر بعد ذلك نفر من الأوس والخزرج حتى كانت البيعة (الثانية) فى العام الثالث .. وهى البيعة التى أشرنا إليها سابقاً والتى تحددت فيها شروط الهجرة ..[1] وتحدد هدفها .. واستوثق العباس للرسول ... وأذن الرسول للمسلمين بالهجرة إلى المدينة فى العام التالى ، فهاجروا جميعاً .. حتى لم يبق إلا من منعه قومه وإلا الرسول ﷺ وأبو بكر وعلى استبقاهما الرسول معه .

فالرسول كان على وعى تام بكل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والدينية لأهل المدينة ، وكان يعرف حجم التكوين البشرى وقيمته ، واستفاد من

حجم الخلافات التى كانت بين كل فريق والآخر أو خدمته هذه الخلافات .. وكان على علم أيضاً بنظم الدفاع ومبرراته ، فقارن بين هذه الأوضاع فى المدينة ومثيلاتها فى مكة .. ورأى أن بقاءه فى مكة لايفيد الدعوة فقرر الانطلاق إلى المدينة ، لتكون ركيزة ودعامة قوية من دعائم الإسلام ونقطة وثوب أصيلة .. استقر رأيه على الهجرة وأخذ شروطه لها ، ووثق من نصرة الأنصار له ، فتحدد هدف الهجرة ، وبقى أن يتحدد وقتها .

لقد فكر الرسول ﷺ فى أن يتخذ مكاناً آخر للدعوة .. ونقطة أخرى غير مكة بعد أن تحقق له تعذر وتعسر ماتمناه فيها .. ولقد كانت مكة بأوضاعها لاتشجع على بقاء الدعوة فيها .. أو على إيثار البقاء فيها .

ولقد أراد الرسول ﷺ أن يكوّن قوة للمسلمين تدافع عنهم وتحميهم .. وتصدُّ كلَّ عدوان وظلم .. وأن يقيم دولة للإسلام لها كل ملامح وأسس الدول .. ولها مميزاتها الخاصة وخواصها .. ولم تكن هذه الملامح وتلك الأسس بمستطاع تحقيقها فى مكة .. ولا بمستطاع تحقيقها فى الحبشة من باب أولى .

ومن هنا كانت الهجرة إلى الحبشة هجرة التجاء فقط .. لم يرض الرسول بها .. ولم يكن بالطبع من اللائق ولا من الجائز للمسئول عن الدعوة أن يهاجر إلى الحبشة .. وقد وثق أنها لاتصلح نقطة وثوب .. وليس فى هجرته إليها مايفيد الدعوة ولا الدولة اللتين يهدف إليهما .

ومن هنا قرر ﷺ أن يبقى فى مكة ريثما تهيئ له الظروف مكاناً أحسن ومنطلقاً أفضل .. ولقد هيأ الله له قلوب الأنصار ، وفتح بقبولهم فتحاً جديداً لفكرة الدولة لدى الرسول العظيم .. ولهذا فكر فى الهجرة وأمر أصحابه بالهجرة الجماعية إليها إيذاناً ببدء عهد للدعوة وللدولة جديد .

من دروس الهجرة

الإعداد .. والكتمان

بسم الله الرحمن الرحيم

(إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم) صدق الله العظيم

الآية ٤٠ من سورة التوبة

نعنى بالإعداد مرحلة التهيؤ للعمل قبل الإقدام عليه والتخطيط له والتبصير الرشيد الواعى بكل دقائقه وتفصيلاته .. والتدبير المحكم لتنفيذها .. والاحتياط بالخطط البديلة .. وأن يكون هناك تصور محدد عن الأهداف والغايات القريبة

والبعيدة والعمل الدقيق المنظم لتحقيقها ومواجهة المشكلات التي تجدّ في سرعة ونفاذ والعمل على حلها بأنجح السبل والوسائل .

ونعني بالكتمان إخفاء الخطط والتدابير .. وأن يكون هناك تكتم وستر وصيانة وحياطة شديدة .. واعتبار ذلك أهم ضمانات النجاح والظفر .

ولاتخفى مكانة التخطيط اليوم وموقعه من الموكب الحضاري لدول العالم تستوى في ذلك الدول الغنية والنامية .. وهو أوجب مايكون للدول النامية المتطلعة نحو مستقبل مشرق سعيد .. وقد أصبح الإعداد الجيّد للخطط أهم أدوات التطور وأقرب الوسائل للنماء والحياة الرغيدة .. وصارت حياة الغد -في كل ألوانها وصورها رهناً بخطط اليوم .. فكانت هناك خطط مرحلية لكل الأجهزة والمشروعات في الدولة مؤقتة بزمن معين وبرامج محددة .

وقد أصبحت وزارات التخطيط وزارات المستقبل .. وأصبح الرخاء والانتعاش مقرونين بما تحققه سياساتها وبرامجها وتقاريرها وقراراتها وتوصياتها .. ويتوقف نجاح المشروعات أو فشلها على نجاح التخطيط لها وبرامجه وسياسته أو فشله .. بقدر ماصار الاحتياط في تكتم المعلومات المتعلقة بخطط الدولة وتطلعاتها أمراً واجب الرعاية والصيانة إلى حد بعيد جداً .

وصارت قدرة كل دولة وسبقها رهناً بمعرفة مالدى الدولة الأخرى المنافسة من قدرات وبرامج ومعلومات ومعدات ومدى ما أحرزت من نجاحات .. وكانت هناك معاهد للبحث عن تلك القدرات واختباراتها بمختلف الوسائل الممكنة وعلى أوسع مدى .. واستخدمت التقنية ووسائلها المتقدمة في هذا المجال الحيوي .. وكانت هناك بنوك للمعلومات ومعاهد متخصصة للتخطيط والدراسات والإستراتيجيات والتمويه وإخفاء الخطط .. وكانت هناك في الوقت نفسه شبكات التجسس وأجهزة التصنت والتجنيد لها بمختلف الإمكانات .

يحدث هذا الآن فى العصر الحديث . . وما أجمل بنا لو عدنا إلى عبق تاريخنا الخالد المعطاء لنرى كيف خطط الرسول للهجرة ؟ وكيف حسب لكل أمر حسابه بدقة متناهية ؟ وكيف تكتّم معلوماته من أن تتسرّب إلى أجهزة التصنت لدى المشركين فيكون الوبال والخسران ؟

ويهمنا بعد استقراء لكل جوانب الهجرة أن نبيّن أن الهجرة انتظمت مرحلتين :

أولاً : مرحلة الإعداد والتخطيط.

آخراً : مرحلة التنفيذ

وقد شملت مرحلة الإعداد دراساتٌ تفصيلية دقيقة حول مداخل مكة وغار ثور والطرق التى بين مكة والمدينة وشعابها ومساربها ومسالكها ومائها . . إلخ ، كما شملت التجهيز للهجرة بكل أشكاله وصوره من رفيق وزاد وراحلة وخادم ودليل وأخبار .. وخليفة للرسول ﷺ ينام مكانه .

وشملت مرحلة التنفيذ كل ماسبق فى مرحلة الإعداد مضافاً إليها النفاذ البصير والدقة المتناهية وسنتعرض بالتفصيل لكل هذه المراحل وتلك الجوانب الخصبة إن شاء الله .

مرحلة الإعداد

تمهيد :

كان خوف مكة على سيادتها ومنزلتها الاقتصادية وزعامتها الدينية للعرب ووحدة كلمتها وتماسكها الاجتماعى ماجعلها تنظر إلى الدين الجديد على أنه ثورة هائلة خطيرة على مصالحها .. وقد تصدت له بكل الوسائل .. ومنعت العقول والقلوب أن تهوى إليه .. وبذرت فى طريقه الأشواك والعراقيل .. ولكن ذلك لم يمنع الرسول أن يدعو وأن يعرض نفسه على القبائل غير آبه بما فعلوا ويفعلون ! وقد

أذن لأصحابه بالهجرة للحبشة التجاء إلى أمن .. ولم يشأ أن يهاجر ؛ لأنه رأى أن هجرته لاتفيد الدين ولاتنميه .. وعندما أذن الله أن تتفتح قلوب الأنصار له وتشرق بنوره فكّر وقدّر واستبشر خيراً .. وعندما بايعوه البيعتين كانت البيعة (الثانية) بداية عظيمة لمرحلة جديدة من مراحل نمو الإسلام وازدهاره .. ولقد قرر الرسول أن يهاجر إلى المدينة .. وهو لم يهاجر إليها إلا لغاية سامية هى أن تكون المدينة نقطة انطلاق جديد للإسلام .

كانت قريش تتبع أخبار الرسول . وقد حوّلها خوفها على مصالحها إلى جهاز كبير لمراقبة خطواته وحركاته وسكناته وتعد عليه خفقاته .. وتحسب لمقابلاته ألف حساب وحساب .. وقد علمت ببيعة العقبة (الثانية) التى قوت من أزر الدعوة وثبتت من أركانها ؛ لأن قريشاً تعلم قوة الأنصار .. لكن كيف علمت بأمرها ؟ لقد كان العباس عم النبى حاضراً عقدها وشروطها .. وكان يستوثق للرسول ، وكان على علم بهجرة الرسول المزمعة .. وأستبعد أن يكون العباس أخبر قريشاً لأن التماسك القبلى هو الذى دفع العباس – وقد كان لايزال على دين قومه – إلى أن يستوثق لابن أخيه[1] وللسبب نفسه يستحيل أن يكون علم قريش بالبيعة عن طريقه .. وفى كتب السيرة مايفيد أن شيطاناً صرخ فى أهل مكة بعد البيعة قائلاً : يأهل (الجباجب) المنازل ، هل لكم فى مذقم والصباة معه قد اجتمعوا على حرمكم ؟ ويذكر ابن هشام أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر اسم هذا الشيطان .. وأنه أقسم ليتفرغن له .

وسواء أعلمت قريش بوسائلها الخاصة استجابة لما ذكرنا سابقاً أم علمت عن أى طريق فإن هذه البيعة أصابتها بسعار شديد حجب ضوء العقل وهدايته .. وحوّلها إلى ثورة هائجة من الانفعال العاصف والغضب العصيب .. وكان غضبها

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٧ وزاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص ٥١ مع اختلاف يسير

على الأنصار عنيفاً لأنها اعتبرت هذه البيعة مبايعة على حربها ، كما جاء على لسان الشيطان ، وكما جاء على لسانهم فيما سيجىء .

وقد ذهب بعض زعماء مكة إلى الانصار يجادلونهم ويستوثقون مما حدث وقالوا لهم : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا .. وإنه والله مامن حىّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .. فانبعث من هنالك من مشركى الأنصار يحلفون بالله ماكان من هذا شىء وماعلمناه .. وصدقوا ، فلم يكونوا يعلمونه .

وروى ابن إسحق أنهم أتوا عبد الله بن سلول فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم .. ماكان لقومى ليتفوتوا علىّ [1] بمثل هذا وماعلمته كان فانصرفوا عنه .

ولما دققوا فى الخبر ووجدوه صحيحاً خرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً : فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رجله ، وجعلوا يضربونه ويجرونه من شعره حتى أدخلوه مكة .. وعذّبوه وأهانوه ولم يخلصه إلا جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل أو مطعم بن عدى والحَرِث أو الحارث بن أمية ؛ لأنه كان يجيرهما ويجير تجارتهما بالمدينة [2] وقد بقى فى نفس سعد بن عبادة من هذا الأمر شىء ، وقد ظهر ذلك عند فتح مكة لما ولاه الرسول أمر الفرقة التى ستدخل من (كداى) .

قال ابن إسحق : فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال : اليوم يوم الملحمة .. اليوم تستحل الحرمة .. فسمعها رجل من المهاجرين — لعله عمر بن الخطاب — فقال يارسول الله ، اسمع ماقال سعد بن عبادة مانأمن أن يكون

---

(١) فى زاد المعاد ليفتاتوا .. ولو كنت بيثرب ما صنع قولى هذا حتى يؤامرونى جـ ٢ ص ٥١.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥١ ، ٥٢ وابن هشام جـ ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ .

له فى قريش صولة ، .. فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها[1].

كان ما كان من أمر قريش من الأنصار بعد علمها ببيعة العقبة (الثانية) والتى اعتبروها مبايعة على الحرب .. وتأكد لديهم أن الرسول مهاجر إليهم ، لأنهم قالوا للأنصار كما سبق : إنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا .. وكانوا يخشون أمر الأنصار لأنهم أهل قوة وحرب .. وهم يخشون أن تقوم الحرب بينهم وبين الأنصار .. وزاد من غضب أهل مكة رؤيتهم المسلمين وهم يخرجون أرسالاً (جماعات) جماعة وراء جماعة مبادرين بالهجرة إلى المدينة ، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلىٌّ أقاما بأمره ، وإلا من احتبسه المشركون كرهاً ، وقد أعد رسول الله جهازه ينتظر ، وأقام بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة كما أعد أبو بكر جهازه أيضاً[2] .

مداخل مكة :

قام الرسول بدراسات مستفيضة حول مكة ، وكان على علم بها وبما حولها لأنها بلده وقد أفاد ذلك فى إعداده للهجرة والتخطيط لها .

ولمكة ثلاثة مداخل رئيسية : طريق الغرب وطريق المعلاة الشمالى وطريق المسفلة الجنوبية ، والطريقان الأول والثانى أقرب إلى المدينة من الطريق الثالث ، ولهذا اتجهت نية الكفار إلى البحث عن الرسول فى الأجزاء الشمالية والغربية من مكة ، لأنها هى المؤدية إلى المدينة ، ولم تفكر فى أن يسلك الرسول طريق اليمن على

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٣٦.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ وابن هشام جـ ٢ ص ٨٠.

حين أن هدفه المدينة .

ولقد اتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام طريق المسفلة الجنوبية : أى أنه اتجه جنوباً ليخلف ظنهم ، ثم يتابع بعد ذلك سيره شمالاً . فكانت خطته تستهدف التمويه على العدو وقلب خططه ، وذلك لايكون إلا عن علم ومعرفة ودراسة مسبقة .

الطرق بين مكة والمدينة :

هناك طريقان موصلان بين مكة والمدينة .. وهذان الطريقان معلومان لأهل مكة :

أحدهما طريق الساحل الذى يسير فى تهامة ، ويمر بالجحفة فرابغ حتى (ينبع) موازياً البحر الأحمر وعند (ينبع) يأخذ طريقه إلى المدينة .. ويعتمد من يسلكه على مياه الآبار التى فى بطون الأودية المنحدرة من الحافة الغربية لجبال الحجاز نحو البحر الأحمر .. وهو طريق قديم معروف ومطروق ، ولقد كانت تسلكه قوافل قريش إذا أرادت أن تتجنب المرور فى المدينة .

والآخر طريق نجد ، وهو طريق كله حرار تنخفض وترتفع .. وأكبر هذه الحرار حرة رهط التى تبدأ شمال مكة بما يقرب من خمسة عشر ميلاً .

وتتبع القوافل من مكة إلى المدينة أو العكس أحد الطريقين : إما طريق الساحل أو الطريق الشرقى (طريق نجد) .

ولقد سار الرسول فى الطريق الساحلى ، ولكنه تجنب الجادة المطروقة والمناطق الآهلة التى فيها استقرار سكانى حتى وصل الجحفة ، وعندها سلك طريق الحرار .. وهو غير الطريق المعتاد بين مكة والمدينة حتى وصل (بدر) وعندها سلك المنطقة الجبلية متجهاً إلى الشمال الشرقى إلى (وادى العقيق) ومنها إلى (قباء) فى جنوب

المدينة .. فأقام بها أربعة أيام أسس بها مسجده ولحقه فيها على بن أبى طالب بعد أن رد الودائع .. ثم وصل الرسول إلى المدينة فى يوم الجمعة الموافق ستة عشر من ربيع الأول ، فخطب بالناس لأول مرة .

وهناك اختلاف يسير بين رواية ابن هشام ورواية ابن القيم فى زاد المعاد وبين رواية ابن الأثير فى[1] البداية والنهاية .

ويستفاد من ذلك أن الرسول اختار فى هجرته طريقاً لم يألفه العرب .. فبدأ باتجاه جنوبى مع أن المدينة فى الشمال ثم تتبع طريق الساحل وكأنه لم يسلكه .. فهو لم ينزل المنازل المعهودة ولم يسلك المسالك المطروقة حتى الجحفة .

والطريق المعتاد عند العرب أن يسلكوا من الجحفة الطريق الساحلى إلى (ينبع) ومنها يتجهون شمالاً شرقيًّا إلى المدينة ..

وهذا الطريق أسهل من الطريق الذى سلكه الرسول ؛ لأنه مألوف ومأمون ، والقوافل فيه كثيرة وهو معروف للعرب جميعاً ، ولكن الرسول آثر الطريق الذى سلكه تفادياً للعيون الراصدة وبعداً عن طلب قريش وقافتها ومن يهمه أمر المكافأة التى رصدتها مكة ، ولهذا آثر الرسول أن يسلك طرقاً وعرة يضرب بها المثل فى وعورتها وخطورتها محفوفة بالمهالك وقطاع الطرق حتى إن بعضهم كما يذكر (ابن كثير) أسلم على يديه[2] حتى هبط العرج ثم وادى العقيق فقباء فالمدينة .

---

(١) راجع معجم البلدان الياقوت جـ ٤ ص ١٣٨ و جـ ٥ ص ٨٦ وجـ ٣ ص ٦٤ وآثار المدينة لعبدالقدوس الأنصارى ص ١٥٧ المكتبة العلمية بالمدينة وراجع أيضا الإمتاع والمؤانسة للمقريزى جـ ١ ص ٣١ وص ٤١ - ٤٦ تحقيق محمود شاكر طبعة لجنة التأليف - القاهرة والبداية والنهاية لابن كثير حـ ٣ ص ١٩٥ وهامشها طبعة - السعادة وراجع أخبار مكة للأزرق حـ ٢ ص ١٢٣ - ١٢٥ - وص ٢٣٦ ، ٢١٥ - ٢٤٥ والألوسى بلوغ الأرب حـ٣ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٩٠ - السعادة - القاهرة.

غار ثور :

غار ثور على مسافة خمسة كيلو مترات ونصف الكيلو متر إلى الجنوب الشرقى من مكة ويبلغ ارتفاعه حوالى سبعمائة وستين متراً تقريباً فوق سطح البحر.

والطريق إليه شاق للغاية حتى إن الرسول لم يصل إليه إلا بعد أن دميت قدماه وحتى أن فصاصى الأثر من الكفار لم يستطيعوا أن يصلوا إلى فم الغار إلا بعد ثلاثة أيام أمضوها فى البحث [1].

وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يأذن الله له بالهجرة وبعد أن قرر الهجرة كان كثير التردد على غار ثور ، ربما ليزداد به إلفة وليعرف طرقه ومسالكه ومكان المخافة منه ؛ لأنه كان يعلم أن الكفار لابد أن يتتبعوا أثره فى محاولة لمنعه من الوصول إلى المدينة بكل الطرق .. وسوف يكون بحثهم عنه أشد وبغيتهم فى طلبه أبقى وأقوى .. وفيه دليل على معرفة رسول الله بمكة ومايحيط بها أو يحاديها من أودية وجبال وغيران ، وفيه دليل الاستعداد للأمر قبل الإذن به . . والتفكير فيه قبل الإقدام عليه . . ودراسته دراسة فاحصة ؛ لأن الرسول استعد كل هذا الاستعداد قبل الإذن له بالهجرة .

التآمر والإذن بالهجرة :

أقام الرسول بمكة بعد هجرة أصحابه ينتظر أن تأذن له السماء فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن وغير عليّ وأبى بكر ،

---

(١) محاضرة « طريق الهجرة للدكتور عبد العزيز كامل منشورات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الموسم الرابع مطبعة الأزهر سنة ٦١ ، ١٩٦٢ .

وكان أبو بكر رضى الله عنه كثيراً مايستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له : لا تعجل يا أبا بكر لعل الله يجعل لك صاحباً ؛ فيطمع أبو بكر فى أن يكونه .

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليه عرفوا أنهم نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا لخروج الرسول إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة وهى دار قصىّ بن كلاب التى كانت قريش لاتقضى أمراً إلا فيها يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله حين خافوه .

ويروى ابن إسحق عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : لما أجمعوا لذلك ، واتعدوا أن يدخلوا فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله ﷺ غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له ، وكان يوم الرحمة ، فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل .. فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر ليسمع ماتقولون[1]

يقول ابن القيم : فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ ، فأشار كل أحد منهم برأى والشيخ يردّه ولايرضاه .. إلى أن قال أبو جهل : قد فرق لى رأى ماأراكم قد وقعتم عليه ؛ قالوا ماهو ؟ قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً ثم نعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا تدرى ينو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع ؟ ولايمكنها معاداة القبائل كلها وتسوق إليهم ديته . . فقال الشيخ : لله درّ الفتى هذا والله الرأى .

فتفرقوا على ذلك واجتمعوا عليه . . وقد أخبر الله رسوله بمكر قريش . . وأمره

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٨٩ – ٩٠ .

ألا ينام في مضجعه تلك الليلة[1] وأنزل الله عز وجل :(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)[2] .

الرفيق :

أذن الله لرسوله بالهجرة بعد أن وصل الأمر إلى تلك الحالة ، قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل الله عليه : (وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)[3] قال قتادة : أخرجه الله من مكة مخرج صدق .. ونبي الله يعلم أنه لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان .. فسأل الله سلطاناً نصيراً وأراه الله دار الهجرة وهو بمكة .. فقال : أرأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين؟ وذكر الحاكم في صحيحه عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال لجبرائيل : من يهاجر معي؟ قال : أبو بكر الصديق[4].

أذن الله لرسوله بالهجرة بعد أن اتجه إلى الله طالباً نصرته وسلطانه فلا طاقة له بهذا الأمر .. وقد طمأنه الله في كل أحواله ، فخرج مخرج صدق ، وعلم أنه سيعود عودة صدق إلى مكة .. وهذا غاية الثقة والاطمئنان .. وأراه الله سبحانه دار الهجرة وفيها أمارة وصوله سالماً .. واختار له أبابكر صاحباً .. واختيار الله فوق كل

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) الأنفال الآية ٣٠ .

(٣) الإسراء/ ٨٠ .

(٤) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٥ .

اختيار .. فجاء إلى أبي بكر نصف النهار فى ساعة لم يكن يأتيه فيها متقنعا[1] (أى لابساً قناعا) تقول عائشة : وكان لايخطئ رسول الله أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله بالهجرة .. والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه .. أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة فى ساعة كان لايأتى فيها ؛ فلما رآه أبو بكر قال : ماجاء رسول الله هذه الساعة إلا لأمر حدث ، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله .. وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء ؛ فقال رسول الله : أخرج عنى من عندك .. فقال : يارسول الله إنما هما ابنتاى .. وماذاك ؟ فداك أبى وأمى ؟ فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .. وفى رواية إنما[2] هم أهلك يارسول الله فقال : إن الله أذن لى فى الخروج .. قالت عائشة : فقال أبو بكر: الصحبة يارسول الله .. قال : الصحبة .. وفى رواية أخرى قال : نعم ؛ فعلم أهل أبى بكر باتفاقهما على القرار ، ولكن لم يعلموا مقصدهما ولا طريقهما .. فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه . فلما رأى رسول الله مكانهم . . قال لعلىّ بن أبى طالب : نم على فراشى وتسجَّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم .

كان عمر علىٍّ إذ ذاك إحدى وعشرين سنة ؛ لأنه أسلم وسنه ثمانى سنوات .. والهجرة كانت بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة .. ولأنه ولد فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام .. وقد ربّاه الرسول فى حجره لكثرة عيال أبى طالب ، فأقدم فادياً للرسول ، ونام مكانه ، وقد طمأنه الرسول بأنه لن يصيبه أذى .

---

(١) و (٢) المصدر السابق ص ٥٢ ، ٩٣ ، لم يكن الرسول قد بنى بعائشة لأنه بنى بها بعد الهجرة وبعد بناء المسجد والمساكن .

قال فى الروض[1] الأنف قال السهيلى : وذكر بعض أهل التفاسير السبب المانع لهم من التقحم على رسول الله ﷺ مع قصر الدار وأنهم جاءوا لقتله .. فذكر فى الخبر أنهم هموا بالولوج عليه .. فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله إنها لسبّة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسوّرنا الحيطان على بنات العم .. وهتكنا ستر حرمتنا ! فهذا الذى أقامهم بالباب وأصبحوا ينتظرون خروجه .. فطمس الله أبصارهم .. وخرج الرسول يدعو الله ويقرأ آيات من سورة (يس) حتى بلغ قوله تعالى (فأغشيناهم فهم لايبصرون)[2] فأخذ بعض الحصى ورمى به فوقهم .. وعصمه الله فخرج قاصداً دار أبى بكر .

ونرى من هذا أن الرسول لم يخبر أحداً بالهجرة إلا عليًّا الذى استخلفه لينام مكانه ، وليوهم القوم أنه ما زال نائماً ، وليؤدى ما عند الرسول من ودائع ، وإلا أبا بكر الذى اختاره الله ليكون رفيقاً له فى رحلته .. بل إن أبا بكر كان عندما يستأذن الرسول فى الهجرة كان الرسول يكتفى بأن يقول له : لا تعجل لعل الله يجدْ لك صاحباً وإن كان قد طمع فى صحبة الرسول .. وفهم من قوله إنما يعنى نفسه ..ولم يخبره الرسول إلا عند الإذعان على الرحيل ، وعندما ذهب إلى أبى بكر ليخبره ذهب إليه فى وقت لم يكن من عادته أن يذهب إليه فيه .. ومبالغة فى الحيطة والتكتم ذهب متقنعاً . واستيثاقاً فى الحيطة طلب من أبى بكر أن يخرج من عنده .. وقد طمأنه أبو بكر أنهم أهله .

الراحلة :

كان أبو بكر اشترى راحلتين وأعدهما للهجرة .. ولما عرض أفضلهما على رسول

---

(١) جـ ٢ تحقيق طه عبد الرءوف سعد .

(٢) من آية ٩ .

الله قال الرسول : إنى لا أركب بعيراً ليس لى ؛ قال : فهى لك يارسول الله بأبى أنت وأمى ؛ قال : لا .. ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يارسول الله .. ولم يرض الرسول أن يركب الراحلة إلا بعد أن دفع ثمنها مع أن الرسول قال : ليس من أحد أمنّ علىّ فى أهل ومال من أبى بكر .. .

أراد الرسول ﷺ أن تكون تضحيته للدعوة بالمال ليست على حساب أحد من أصحابه .. وأن تكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام فى استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالها .

الدليل :

استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط الليثى .. وكان على دين قومه ، ولكنه كان هادياً ماهراً بالطريق .. فسلما له الراحلتين ووعداه غار ثور بعد ثلاث .

ويعتقد أنهما كانا يثقان به ثقة كاملة ، وأنه كان أهلاً لتلك الثقة .. وقد كان عنده كل مايهم قريشاً : الراحلتين والمكان الذى سيذهب إليهما فيه والموعد .. وباختصار كان معه كل المعلومات عن الهجرة وعن المهاجرين الكريمين .. ولم نسمع أنه أفشى إلى أحد سرًّا أو ألمح إلى أحد بخبر .

واختيارهما له وهو كافر كان عن اقتناع به أولاً وبخلقه وبخبرته العظيمة فى هذا الشأن ، وفيه تقدير لأمر الخبرة والخبراء والانتفاع بهما بشرط الخلق والثقة والأمانة .

ضروريات الرحلة :

وكان لابد للرسول ﷺ من تدبير أمر الطعام والشراب والزاد والحصول عليها

من مكة فى الأيام التى سيكون فيها فى غار ثور .. ولابد له أيضاً من تدبير بعض الأمور الأساسية التى تهمه والتى يريد أن يطمئن عليها ؛ إذ لابد أن يكون على صلة بما تجرى به الحوادث والأحداث فى مكة : ماذا فعلت قريش ؟ وماذا ستفعل ؟ وماذا تفكر فى فعله ؟ ولابد أن يكون الطريق مأموناً مفتوحاً أمامه إلى المدينة بغير أشواك ولاعقبات ، ولابد أن يكون معهما خادم يقوم على شئونهما .

وكان أهمُّ ما يهمه – أخبار قريش حتى يعد العدة لكل احتمالات المستقبل .. وقد رتّب الرسول لكل أمر من هذه الأمور الجهاز الخاص به فى تناسق وشمول ونظام عظيم .. فكانت الأخبار تصله فى كل دورة النهار : فكان عبد الله بن أبى بكر يبيت عندهما فى الغار إذا أظلم الليل ، ثم يعود فى الفجر إلى قريش ، فيظن أهل مكة أنه كان معهم ، ويمضى نهاره بينهم يسمع مايقولون ، ثم يرجع إلى الغار ليخبر النبى ﷺ بما كان من أمر قريش وأخبارها .. وكان عامر بن فهيرة يرعى عليهما غنماً لأبى بكر ويستمع مايقال بمكة ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس [1] .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام ، وتتكفل بإحضاره وقد قطعت قطعة من نطاقها فأوكت بها الجراب .. وقطعت الأخرى فصيرتها عصاماً لفم القربة ، فلذلك سميّت بذات النطاقين .. أما آثار أقدام عبد الله وأسماء فكان عامر ابن فهيرة يروح على الغار بأغنامه بعد أن يرعى نهاراً فيشرب الرسول وأبو بكر ماشاءا من ألبانها ولحومها .. ثم يتابع سيره بالقطيع .. وكانت حوافر الغنم تعمى على آثار الأقدام التى يتركها سير أسماء وعبد الله ، فلا يبقى أثر ينم عن إنسان .

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٣ .

الخادم :

قام بخدمة الرسول وأبى بكر فى الغار عبد الله وأسماء ابنا أبى بكر وعامر بن فهيرة مولاه كما ذكرنا .. أما الخادم الذى قام على شئونهما فى الهجرة فقد كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر .. وقد كان ثقة أميناً .. حفظ سرّهما فى الغار ونقل إليهما أخبار مكة .. وزودهما بالألبان واللحوم .. ولم يكشف عن هذا السر لأحد .. ولا باح به لمخلوق .

وقد كان عامر حيث وثق به الرسول وصاحبه كفاء ونزاهة وتفانيا فى خدمتهما والقيام على شئونهما .. وكان محل ثقتهما وموضع سرهما .

مرحلة التنفيذ :

نام علىّ فى مضجع الرسول واتشح ببرده الحضرمى .. واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ويرصدونه .. وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من البطحاء ، فجعل يذره على رءوسهم وهم لايرونه وهو يتلو قوله تعالى من سورة يس : (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون)[1] ومضى الرسول تحرسه عناية الله إلى بيت أبى بكر فخرجا من خوخة فى دار أبى بكر ليلاً[2] ولم يشر ابن إسحق إلى الوقت الذى خرج فيه الرسول وصاحبه ، ومضى رسول الله وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وزاد ابن هشام أنهما دخلا ليلاً[3] .

---

(١) آية ٩ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ .

(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٣ .

وقد سبق أن قلنا : إن المسافة بين الغار وبين مكة حوالى خمسة كيلو مترات ونصف الكيلو متر .. ويكون الرسول وأبو بكر خرجا منتصف الليل تقريباً ؛ ليقطعا هذه المسافة ويصعدا إلى الغار الشاهق ويصلا ليلاً ..

ويصف المقريزى وعورة الطريق بين مكة وغار ثور بقوله : إن النبي وأبا بكر مضيا إلى غار بجبل ثور فلم يصعدا الغار حتى قطرت قدما رسول الله دماً .. وعادت قدما أبي بكر كأنهما صفوان[1] ..

وذكر الحاكم فى مستدركه عن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر ، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فسأله . . فقال له : يارسول الله ، أذكرُ الطلب فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك ! فقال : يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دونى ؟ قال : نعم ، والذى بعثك بالحق .. فلما انتهى إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستبرئ لك الغار ، فدخل فاستبرأه حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة فقال : مكانك يارسول الله حتى أستبرئ الحجرة ، فدخل واستبرأ الحجرة .. ثم قال : انزل يارسول الله ، فنزل فدخلاه وضرب العنكبوت على بابه ، وباضت الحمامة على فمه ..

تركنا القوم بباب الرسول بعد خروجه ﷺ وهم لم يشعروا به .. وجاء رجل ورآهم ببابه فقال : ماتنتظرون ؟ قالوا : محمداً ؛ قال : خبتم وخسرتم ! قد والله مر بكم وذرّ على رءوسكم التراب وماترك رجلاً منكم إلا قد وضع على رأسه تراباً .. وانطلق لحاجته ! أفما ترون مابكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، وقام ينفض التراب عنه !

ولم يذكر ابن هشام ولا ابن إسحق أسماء الذين كانوا يلتفون حول بيت الرسول ،

---

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٠ والصفوان الصخر الأملس.

ولكن بعض المدونين للسيرة ومنهم ابن القيم ذكر أسماءهم .. وهم أبو جهل والحكم ابن العاص وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وزمعة ابن الأسود وطعيمة بن عدى وأبو لهب وأُبَى بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج .

جعل هؤلاء الرصد يتطلعون إلى فراش النبي فيرون عليًّا نائماً متسجّيًا ببرد الرسول فيقولون : والله إن هذا لمحمدٌ نائماً عليه برده فلما أصبحوا قام على عن الفراش ، فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال : لا علم لى به[1] .

وأتى نفر من قريش فيهم أبوجهل بن هشام - دارَ أبي بكر ، فخرجت أسماء فقالوا : أين أبوك يابنت أبي بكر ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبي . . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً . فلطم خدها لطمة طرحت قرطها !

أصاب قريشاً الذهول ومايشبه السعار المحموم .. واحتقن أفقها بالحقد والكراهية .. وجدّت فى طلبها .. ففتّشتْ شمالاً وشرقاً وغرباً أى فى مداخل الطرق الموصلة إلى المدينة ، ولم تدر أن الرسول اتجه جنوباً على حين أن اتجاهه شمالاً ! أضاعوا وقتاً وجهداً فى البحث حتى أخذ القافة يتتبعون الآثار .. وكانوا مهرة فى الاقتفاء .. وبرغم الاحتياطات التى قام بها النبي والتمويه الذى فعله فقد استطاع قصاصو الأثر أن يصلوا إلى فم الغار بعد ثلاثة أمضوها فى البحث ، ولكنهم لم يتابعوا البحث فيه .. بل انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه ، وقال أبو بكر لرسول الله كما جاء فى الصحيحين :

يارسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى ماتحت قدميه لأبصرنا .. فقال الرسول : ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما .. لاتحزن ياأبا بكر إن الله معنا .

وفى هذا نزل قوله تعالى : (إلاتنصروه فقد نصره الله إذ أخرجهُ الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ - ٥٣ وابن هشام جـ ٢ ص ٩٢ - ٩٣.

معنا) [1] .

إنها الثقة فى الله تشرق فى قلب الرسول وبين جنبيه فهو لايلقى بالا للهول الذى يحيط به ولا للموت الذى يلتف من حوله التفاف السوار بالمعصم ! بل يثبّت من خواطر الصديق ويقوى من معنوياته أن معهما أقوى القوى والقدر .. معهما الله .. يؤازرهما ويمنعهما من القوة الحمقاء .

والمعية هنا تعنى الحفظ والنصر .. والقدرة والحماية والثبات والتفاؤل والأمل والثقة فى المستقبل ، وتلك عدة الأحداث حفظ الله رسوله بالعنكبوت وبما نسج وبالحمامة وبيضها .. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت .. والحمامة شعار السلام والأمان ، والعنكبوت والحمامة من جند الله وكان صنعهما عدة الحماية ووسيلة النصر .

مكث الرسول وصاحبه فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب . فجاءها عبد الله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة ، وسار الدليل أمامهما وعين السماء كأم الوحيد تحوط وترعى موكبهما السائر المشوق .

يئس المشركون من الظفر بهم أو العثور عليهم ، فرصدوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما ، وكانت الدية مائة من الإبل ، فجدّ الناس فى الطلب :

يقول ابن هشام : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم .. والرواية الأولى رواية ابن القيم وبينها وبين رواية ابن هشام خلافاً :

فالأولى تفيد أن قريشاً رصدت لمن جاء بهما أى بالرسول وأبى بكر دية كل واحد منهما ، ومعنى هذا أن الدية المرصودة هاهنا ديتان لا دية واحدة أى مائتا ناقة لامائة واحدة ..

---

(١) الآية ٤٠ سورة التوبة

ورواية ابن هشام تفيد أن المكافأة المرصودة مكافأة واحدة ودية واحدة لمن يرد الرسول فهى مائة ناقة لامثنان .

ولا تعارض لجواز أن يكون ما رواه بن هشام ، قاله القرشيون أولاً بعد علمهم بهجرة الرسول وقبل علمهم بهجرة أبى بكر معه .. ثم لما اكتشفوا هجرة أبى بكر معه قالوا الرواية الأخرى ورصدوا المكافأة لكل منهما .

خرج الرسول من مكة قاصداً المدينة فمر فى طريقه على (عسفان[1] وأقبح[2] وقديد والحدّار والجداجد والعرج وبئر أريس فقباء فالمدينة) وهو طريق الساحل وإن كان قد تجنب فيه الجادة المطروقة والمناطق المستقرة الآهلة بالسكان حتى وصل الجحفة ، وعندها سلك طريقاً غير الطريق المعتاد كما سبق أن قلنا .

سراقة بن مالك :

وبينما كان الرسول ومن معه يمر بحى بنى مدلج مصعدين من (قديد) وهى الآن قرية صغيرة على وادى ستارة الذى ينبع من حرة رهط ، ويتجه إلى البحر ويذكر البكرى أنها قرية جامعة مذكورة فى رسم الفرع وفى رسم العقيق وهى كثيرة المياه والبساتين[3] : بينما كان الرسول يمر بحى بنى مدلج مصعدين من (قديد) بصر بهم رجل من الحى فوقف فقال : لقد رأيت آنفا بالساحل أسودة ما رآها إلا محمدٌ

---

(١) عسفان بلدة لاتزال قائمة حتى الآن على واد يحمل مجراه الأعلى اسم وادى فايد ومجراه الأدنى اسم وادغولة .

(٢) أمج أو أقبح كما روى ابن هشام – لم ترد على الخرائط الحديثة وهى واد يأخذ من حَرة بنى سليم وينتهى إلى البحر .

(٣) معجم ما استعجم جـ ٣ ص ١٠٥٤ نشر المعهد الخليفى للأبحاث المغربية تحقيق مصطفى السقا طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩ .

وأصحابه .. ففطن للأمر سراقة بن مالك وزاد ابن هشام قول سراقة فأومأت إليه بعيني .. يعني .. اسكت ، لأنه أراد أن يظفر بالمكافأة خاصة .. وقال له : بل هم فلان وفلان خرجا في طلب حاجة لهما ، ثم مكث قليلاً ودخل خباءه وقال لخادمه : أخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك وراء الأكمة .. ولبس لأمته ، وأخذ رمحه وسلاحه من وراء الحجرة وأخذ قداحه .. وركب فرسه وانطلق وراء الطيف ..

أخرج سراقة قداحه فاستقسم بها فخرج السهم الذي يكره : أي أنه لايظفر بهم .. ولما كان قد أزمع على أن يردهم إلى قريش ليحصل على مائة الناقة فلم يعر الأقداح اهتماما ، وسار وراءهم فلما اشتد فرسه عثر به فسقط عنه فقام وأخرج القداح فاستقسم بها ، فخرج السهم الذي يكره أيضاً ، فأبى إلا أن يتابع الرحلة ، فلما اشتد فرسه عثر به فسقط عنه ، ثم قام فأخرج قداحه فاستقسم بها فخرج السهم الذي يكره فأبى إلا أن يتبع الركب .. فلما بدوا له ورآهم عثر به فرسه فذهبت يداه في الأرض ، وسقط عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعها دخان كالإعصار ! قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنه ظاهر .. ثم قال : فناديت القوم .. فقلت : أنا سراقة بن جعشم انظروا أكلمكم .. فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه ؛ فقال رسول الله لأبي بكر : قل له : وماتبتغي منا ؟ فلما قال له ذلك أبو بكر قال سراقة : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك قال : اكتب له يا أبا بكر فكتب له[1] .

وفي هذه الرواية يظهر لنا أن سراقة استقسم قداحه ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان يخرج السهم الذي يكره .. وأن فرسه عثرت به ثلاث مرات وأنه لما عثرت به في المرة الثالثة التي رآهما فيها غاصت يدا الفرس في الأرض فانتزعها .. وأنه لما

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٦ – ٩٧.

انتزعها تبعها دخان كالإعصار ، فأيقن حينئذ أن الرسول ظاهر وأنه لن يدركه ، ثم نادى فأمر الرسول أبا بكر أن يرد عليه بما يبتغى ، ثم كتب له كتاباً كرغبة سراقة .

وفى رواية أخرى أنه لما دنا منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ وأبوبكر يكثر الالتفات ورسول الله ﷺ لايلتفت فقال أبو بكر : يارسول الله ، هذا سراقة بن مالك قد رهقنا ؛ فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه فى الأرض ، فقال سراقة : قد علمت أن الذى أصابنى بدعائكما .. فادعوا الله لى ولكما على أن أردّ الناس عنكما .. فدعا رسول الله ﷺ فأطلق .. وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً ، فكتب له أبو بكر بأمر رسول الله فى أديم .. وظل الكتاب معه حتى يوم فتح مكة .. فجاءه بالكتاب فوفاه له رسول الله ﷺ وقال : هذا يوم وفاء وبر .. وعرض عليهما الزاد والحملان فقالا : لاحاجة لنا به .. ولكن عمّ عنا الطلب فقال : قد كفيتم ورجع فوجد الناس جادين فى الطلب فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر .. وقد كفيتم ماهاهنا وكان أول النهار جاهداً عليهما وآخره حارساً لهما[1].

ويتبين لنا من هذه الرواية أنه عرفهم من قراءة رسول الله التى سمعها وأن الرسول لم يلتفت ، ولم يشأ أن يكلم سراقة ، وإنما كلمه أبو بكر بأمر الرسول ، ولم يكتب له الرسول ؛ وإنما كتب أبو بكر وأن فرس سراقة ساخت يداها بدعاء الرسول ، وأنه اعتقد أنه لن ينال من الرسول وأن بركة الرسول هى التى جعلت يدى الفرس تغوصان فى الأرض ، وأن الرسول لم يدع له بخلاص فرسه وخلاصه إلا بعد أن استيقن منه أنه لن يكون منه مايكرهون ؛ كما يتبين لنا أن أبا بكر عرفه لما ناداهما وقال لهم : أنا سراقة كما فى الرواية الأولى

ويظهر لنا من مجموع الروايتين أن الرسول عمل كل مافى جهده البشرى معتمداً على كل خبراته ومعارفه واحتاط فى كل شىء حتى فى تلك الأشياء البسيطة التى

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٣ .

لانهتم بها .. فلم يلتفت الرسول ولم يتكلم برغم معرفة سراقة بأنهم هم الطلب .. وعلم الرسول بذلك وكان الرسول واثقاً من نصر الله فلم يخف ولم يتسرب الخوف إلى قلبه حتى فى أدق اللحظات وهو فى الغار أو فى مشهد سراقة ، ولم يُعر ذلك اهتماما لوثوقه بالعناية الإلهية ، كما أنه لم يشأ أن يعطيا سراقة الكتاب يدا بيد و إنما رمياه له .

لقد عمل كل مافى قوة الجهد البشرى ، ثم ترك للعناية الإلهية تدبر بعد ذلك كل ماتراه نحوه ، فكانت إشارة القدرة الإلهية تسبق إشارته إلى فرس سراقة . فشقت الأرض ، وغاصت حوافر الفرس فاقتنع سراقة حين ذاك بأنه لن يظفر به فى الوقت الذى أخبرته قداحه ثلاث مرات بذلك .. وأدرك أن الرسول ظاهر مؤيد بأسباب السماء .. وعلم أن الذى أصابه بدعائهما .. وطلب منهما أن يدعوا له : أى أنه طلب من القدرة ولجأ إليها أن تحميه مما وقع فيه .. وتصرف عنه مابه قد نزل وماله قد حصل .. فدعا له الرسول فأطلق .. ولما عرض عليهما الزّاد واللبن لم يرضيا .. وماندرى : أكان عدم رضائهما لأنهما كانا لم يزل معهما فضل زاد .. أم لأنهما احتاطا منه .. ولا أقول : مايزالان يشكان فى نيته والقول بالاحتياط أوجه لأنهما وجّهاه إلى أن يعمى عليهما الطلب وهو حياطة لهما ونوع من الصيانة كانا فى مسيس الحاجة إليها .

ولقد وفى رسول الله لسراقة بكل ماكتبه : فقد جاء يوم فتح مكة ، فأسلم ودفع إلى الرسول الكتاب فوفاه .. وهناك رواية أخرى تفيد أن الرسول قال لسراقة .. فكيف لك ياسراقة بتاج كسرى وقيصر ، أو بكنوزهما ؟

وتفيدنا هذه الرواية أن الرسول كان واثقاً فى مستقبل الإسلام حتى فى أدق مراحله وأخطر ظروفه ، أو يكون ذلك من الله تثبيتاً لقلب الرسول وخاطره ، أو أن الله أطلعه على ذلك استلهاماً لبوادر الأمل والثقة والرجاء فى الله .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يكون فى ذلك صرف لسراقة عن المكافأة

السخية التى بذلتها قريش إلى مكافأة أكبر وأعظم .. فكنوز كسرى وقيصر كانت تمثل فى انطباع العربى شيئاً خطيراً جداً لما كان يسمعه ويراه ويحسّه من بهرج حضارى ونعمة يتمتع بها كل منهما .. ومايُغرِق كلاً منهما إلى أذنيه فيه من مال وكنوز .. وكان ذكر البلاط القيصرى أو الكسروى يعنى شيئاً أسطورياً يذهب بخيال العربى فوق الخيال والأساطير.

وقد تحقق ذلك لسراقة بعد أن فتح الله على المسلمين الدولتين العظيمتين ..

سار الرسول هو وأبو بكر ومن معهما .. ومرا فى مسيرهما بخيمتى أم معبد الخزاعية واسمها عاتكة. قال ابن هشام هى بنت كعب بن خالد .. وهى امرأة من خزاعة .. والصحيح[1] أنها عاتكة بنت خالد إحدى بنى كعب من خزاعة .. وكانت امرأة برزة[2] جلدة تحتبئ بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى من مرّ بها فسألاها : هل عندك شيء ؟ قالت : والله لو كان شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب .. وكانت سنة شهباء أصابها القحط .. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة وقال : ماهذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم .. فقال لها : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك .. قال الرسول : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها ؛ فمسح الرسول ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا فتَفَاجت عليه .. ودرت فدعا بإناء لها بربض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب وحلب فيه مرة أخرى حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها فارتحلوا .. وجاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافاً يتساوكن هزالاً . فلما رأى اللبن عجب فقال : من أين لك هذا والشاة عازب ولا حلوبة فى البيت ؟ فقالت : لا ، والله

---

(١) هامش ص ٩٥ جـ ٢ ابن هشام.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٣.

إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا وقصت عليه ماحدث .

وصف أم معبد للرسول :

قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه .. واتجه إلى أم معبد وقال لها : صفيه لى يا أم معبد .. قالت له : إنه ظاهر الوضاءة أبلج الحسن .. حسن الخلق لم تعبه نجلة [1] ولم تزر به صعلة [2] وسيم قسيم .. فى عينيه دعج [3] وفى أشعاره وطف [4] وفى صوته صحل [5] وفى عنقه سطح [6] أحور أكحل [7] أزج أقرن [8] شديد سواد الشعر .. إذا صمت علاه الوقار .. وإن تكلم علاه البهاء .. أجمل الناس وأبهاهم من بعيد .. وأحسنه وأحلاهم من قريب .. حلو المنطق .. فصل لانزر [9] ولا هزر [10] .. كأن منطقه خزرات نظمن يتحدرن ربعة .. لاتقحمه عين من قصر .. ولاتشنؤه من طول .. غصن بين غصنين .. فهو أنضر

---

(١) النجلة — العيب والشق .

(٢) العوج والطول .

(٣) سواد العين وسعتها .

(٤) الوطف محركة كثرة شعر الحاجبين والعينين .

(٥) بحة فى الصوت .

(٦) بسطة واستواء .

(٧) أن يشتد بياض العين ويسود سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ، أو قسوة بياضها وسوادها فى بياض الجسد ، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء .

(٨) خصلات من الشعر .

(٩) (١٠) لا هو طويل ولا قصير .

الثلاثة منظراً .. وأحسنهم قدراً .. له رفقاء يحفون به .. إذا قال استمعوا لقوله .. وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود .. لا عابس(١) ولا مفنّد(٢) .. فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا .. لقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً". وصاح صوت بمكة عالياً يسمعونه ولا يرون القائل :

جزى الله رب الناس خير جزائه — رفيقين قالا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به — وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى مازوى الله عنكم — به من فعال لا يجازى وسؤدد
لِيَهْنِ بنى كعب مكان فتاتهم — ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها — فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

تقول أسماء : مادرينا أين توجه الرسول وأبو بكر إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، فأنشد هذه الأبيات والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولايرونه حتى خرج من أعلاها قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ وأن وجهته المدينة .

قدوم رسول الله ﷺ قباء :

بلغ الأنصار مخرج رسول الله من مكة وقصده المدينة ، فتوقعوا قدومه ، فكانوا يخرجون كل يوم إذا صلوا الصبح إلى ظاهرة الحرة ينتظرون قدومه الميمون .. ولايبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا بيوتهم من شدة

(١ ، ٢) مطاع فى إخوانه مهيب يحفون لخدمته .

الحر[1] .. حتى كان اليوم الذى قدم فيه الرسول ﷺ وهو يوم الاثنين الثانى[2] عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا على عادتهم ، فلما حميت الشمس رجعوا وصعد رجل يهودى على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه ، فرأى الموكب النبوى فصرخ بأعلى صوته : يابنى قيلة يريد الأنصار . هذا جدكم الذى تنتظرونه فبادروا لحمل السلاح ليلتقوا ورسول الله ﷺ وتكبيرهم يهز أرجاء الأرض ، وخرجوا إلى رسول الله وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر ، فحيوا الرسول بتحية النبوة وأحدقوا به مطيفين حوله والسكينة تغشاه وقد نزل الوحى عليه : (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)[3]

يقول ابن هشام : وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو بكر ، فظله بردائه فعرفناه عند ذلك .

مسجد قباء :

وسار الرسول حتى نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، فنزل على كلثوم بن الهدم[4] أخى ابن عمرو بن عوف ، فأقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ، وأسس

---

(١) كان وصول الرسول المدينة فى شهر أيلول (سبتمبر)

(٢) قال غير ابن إسحق وابن القيم لثمان خلون من ربيع الأول

(٣) التحريم / ٤

(٤) كان شيخا كبيراً مات بعد قدوم الرسول بوقت يسير ، وهو أول من مات من الأنصار وكان بيته بيت الأعزاب وكان الرسول آن ذاك عزبا ليس معه أهله . وفى زاد المعاد جـ ١ ص ٢٥ كلثوم بن الهدم وهو خطأ كما لايخفى .

مسجد قباء وهو أول مسجد أسس بعد النبوة ، ونزل أبو بكر على خبيب بن أساف وقيل على خارجة بن زيد أحد بنى الحارث من الخزرج .

قدوم عليّ :

يذكر ابن هشام أن عليًّا أقام بمكة ثلاث ليال وأيامها[1] ويذكر أيضاً أن الرسول أقام بالغار ثلاثاً[2] .. ومعنى هذا اتفاقهما فى توقيت الخروج من مكة .. ويذكر أيضاً أن عليًّا لحق برسول الله فى قباء ونزل معه على كلثوم بن هدم[3] .. ومعنى هذا أن توقيت وصولهما المدينة كان قريباً .

فهل يعنى هذا أن الرسول أخبر عليًّا بوجهته عندما استخلفه مكانه ليلة الهجرة .. أو أن عليًّا رضى الله عنه علم بوجهة الرسول وأبى بكر من الهاتف الجنى الذى تصادف أن يصيح فى مكة بعد ثلاث ليال من خروج الرسول وأبى بكر .. تقول عائشة : فمكثنا ثلاث ليال ومانذرى أين توجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر ؟ أو أن عليًّا علم بوجهتهم من القافة أو من الناس وهو يتبع أثر الرسول فى الطريق . أكاد أقتنع بأن عليًّا إنما علم من الجن ويكون توقيت الهاتف إشعاراً لعلى بالجهة أو علم على من الطريق .. ولا شك أنه كان فى لهف شديد لأخبار الركب ، وكانت كل حواسه متتبعة للركب باحثة عنه .. ولكن لايمنع مطلقاً أن يكون الرسول أخبر عليًّا بوجهته .. وعلىٌّ قد تربى فى بيت النبوة وارتوى من نبعها النورانى وتخلق بخلق الرسول .

---

(١)،(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٩ و ٩٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٩.

المدة التى قضاها بقباء وأول جمعة :

كان قدوم رسول الله المدينة يوم الاثنين لاثنى عشرة ليلة من ربيع الأول .. أو يوم الاثنين ثانى عشر من ربيع الأول على حسب مارأى ابن القيم .

وقد أقام بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده .. ثم خرج يوم الجمعة .. وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك كما يقول ابن هشام ، فأدركت الرسول الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة (١) .

ويرى ابن القيم أنه أقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء (٢) .. ويقول ابن الكلبى : إن الرسول خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول .. ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتى عشرة منه .

وابن القيم قد يكون أخذ بقول بنى عمرو بن عوف وقد ذكر ابن هشام أنهم يزعمون أن الرسول مكث فيهم أكثر من الأيام المذكورة .

ويؤيد هذا أن ابن الكلبى يذكر اليوم الذى خرج فيه الرسول من الغار واليوم الذى وصل فيه .. ومعنى كلامه أنه لم يقض أياماً عند بنى عمرو بن عوف .

وأيًّا ماكان . . فاليوم الذى قدم فيه الرسول كان يوم اثنى عشر من ربيع الأول أو ليلة اثنتى عشرة من ربيع الأول . . وأن أول جمعة فى الإسلام كانت بالمدينة فى بنى سالم بن عوف فى المسجد الذى فى بطن الوادى .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ .

وصوله المدينة :

ركب الرسول وأخذ الأنصار يمسكون بخطام ناقته كلٌّ يود لو يقيم عنده .. فكان الرسول يردهم فى لطف ويقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .. قال هذه العبارة لبنى سالم بن عوف .. ولرجال من بنى بياضة وبنى ساعدة وبنى الحارث وبنى عدى بن النجار أخوال جده .. فلم تزل ناقته سائرة حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم وبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت ، وسارت قليلا ثم التفتت فرجعت فبركت فى موضعها الأول فنزل عنها ، وذلك فى بنى مالك بن النجار أخواله ﷺ .

يقول ابن القيم : وكان ذلك من توفيق الله له فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله فى النزول عليهم .. وبادر أبو أيوب فحمل رحله ، فأدخله بيته ، فجعل الرسول يقول : المرء مع رحله . . وجاء أسعد بن وزارة فأخذ بزمام ناقته وكانت عنده .

فرح الأنصار بقدوم رسول الله :

ولما جاء رسول الله فرح الأنصار بمقدمه المبارك .. قال البراء : مارأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به .. حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول قد جاء .. وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

وقد انتهت رحلة الهجرة ، ولكن الهجرة لم تنته .. الهجرة بأهدافها وغايتها بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ راشداً سالماً إلى المدينة .. وبدأت معها رحلة المصاعب والتحديات فتغلب عليها للوصول إلى المستقبل العزيز للأمة وللدولة

وللدعوة .

ومن ير أن الهجرة رحلة ولاتتعدى كونها رحلة يقف بها إلى هذا الحد لايتعداه .. وينهي الدور .. ويسدل الستار على حدث الهجرة .. وهذا قصور بالفكر .. وغيبوبة قسرية له .

فالهجرة لم يكن دورها فى أن ينجح الرسول فى الخروج من مخالب القرشيين الذين تسوروا داره .. وقرروا اغتياله وتمزيقه لو ظفروا به .. وكان نجاحه فى ذلك يعنى نجاح الهجرة وأنها أدت الغاية المطلوبة .. وهذا غير صواب ؛ لأن الهجرة لم ترد لذلك فحسب .. ولكن لغايات سامية نبيلة تتصل بتاريخ الإسلام وتحرير بداياته .. وفتح سجل للدولة الإسلامية فى عناق تاريخى حميم .. بل أكاد أجزم لو أن الرسول ﷺ بقى فى مكة ولم يتطلع لفتح جبهة المدينة للإسلام .. لما كان هذا التآمر على قتله .. ولا التفكير فيه .. ولا عقد المؤتمرات له ، لأن ذلك كله بدأ مع طلائع التحدى فى بيعة العقبة (الثانية) .. التى تصورت قريش وحق لها ذلك أنها كانت حرباً موجهة إليها وإلى مستقبلها السياسى والدينى والتجارى كله .. ولهذا قررت أن تدافع عن كيانها بكل السبل وتحميه مهما كلفها من مخاطر .. ومهما اتخذت فى سبيله ولو كان القتل والتصفية الجسدية .

كانت الهجرة كما سنرى بداية الجهاد المتصل .. وفجر الأمل الحلو .. وانطلاقة الوثوب .. وبوابة التاريخ الأسنى لدولة الإسلام العظيمة .

الرسول فى المدينة

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة التوبة

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف

لا يهمنى وخُطى الرسول المباركة الشريفة تلثم صدر المدينة فى حنو ورأم .. وتزرع الشروق فى كل منعطف وتثنية .. وترويه بالغبطة والسعادة .. لا يهمنى أن أصف

شعور المسلمين وهم يستقبلون أملهم وعمرهم ووجودهم الأسنى ممثلاً فى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وكيف تلقوه بالهتاف والأغاريد .. ولا يهمنى أن أصوّر مبلغ فرحتهم به وسعادتهم بلقائه .. وترحيبهم المتجدد بوجوده بينهم ، ولايهمنى أيضاً أن أصف سعادة الرسول بلقائهم .. ولا أن أصور فرحته السَّامية وبشره الغامر .. ووجوه الأنصار الضاحكة المستبشرة تحيط به فى شوق وحب إحاطة الهالة بالقمر المكتمل .. والسوار بالمعصم الكريم .. والجنود باللواء الحر الخفاق وقلوبهم المغردة المضيئة تهدر بالنعيم الذى بدا عليها وهى تتلقاه بالبشر والترحيب .. وترسم حول حضرته الميمونة حديقة من البهجة والتألق والسرور والعبير.

لا يهمنى أن أصف ذلك ولا أن أصوره لأدع الآذان والأبصار والقلوب تسرح معه كل مسرح .. وتهيم به ماشاء لها أن تهيم وتذهب فى تُصوره كل مذهب .. ولايهمنى ذلك أيضاً .. لأن ذلك مما قد فاضت به كتب السيرة واستفاض وذاع حديثه بين الخاصة والعامة .

لا يهمنى ذلك .. لأننى أعتقد أنه حتى مجرد الإشارة إليه يعتبر تطفلاً لاداعى له .. وطعناً موجهاً إلى الحب الإلهى الباسق الذى صنعته السماء .. وبذره الله فى القلوب فأينع وأزهر وأثمر وآتى أكله ولم يظلم منه شيئاً .. وأصبحت الإشارة إليه إساءة إلى الصفات النبيلة الأصيلة للأنصار .. بل إلى أخص تلك الصفات وهو الحب والإيثار اللذان وصفهم الله بهما (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجرَ إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1] ويكفيهم هذا الوصف من الله .. ويغنينا عن كل كلام يقال .

---

(١) الأية ٩ الحشر.

الذى يهمنا بالدرجة الأولى أن نسرع الخطى لنلحق بركب رسول الله .. ونعايشه فى مهاجره .. وهو يضع اللمسات النهائية لملامح الدولة فى مرحلتها الجديدة .. ويكتب شهادة ميلاد الأمة الإسلامية .. ويراجع خططها الأخيرة قبل أن يزفها إلى الآفاق .

وإذا كانت الهجرة نهاية رحلة .. فإنها فى الوقت نفسه بالدرجة والحماس نفسهما نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة أخرى .. والوقوف عند وصفها بأنها نهاية رحلة وصف يزرى بفكرة الهجرة ذاتها وبغايتها وبما تحمّله الرسول العظيم والمسلمون معه فى سبيلها .. بل ويزرى بوضعها فى التاريخ الإسلامى وفى مسيرة الدولة والدعوة الإسلامية .

لقد كانت الهجرة نهاية مرحلة من الضعف والتحسب وعدم القدرة على الدفاع عن النفس والعقيدة .. وبالقدر نفسه بداية لمرحلة متميزة من إثبات الذات وبناء الشخصية المسلمة وإعدادها الذى يتدرج من الفرد إلى الجماعة والمجتمع ثم إلى الدولة ككيان كبير على أساس من الثقة بالنفس والتحمس والإباء والشموخ .. والتصدى والدفاع عن النفس .. ثم تجاوز ذلك إلى الوثوب والانطلاق .

ولقد استدعى ذلك جهداً خارقاً وعملاً شاقاً مضنياً متواصلاً من أجل هذه المرحلة المتميزة القادرة .

مفهوم الدولة :

لقد كانت الغاية من الهجرة – كما سبق أن ذكرنا – إقامة الدولة الإسلامية وإرساء قواعدها فى ظل القوة الشابة للأنصار .. وفى ظلال المبادئ التى بايعوا عليها الرسول .. وهو أن ينصروه ويمنعوه من كل ما يمنعون منه نساءهم وأطفالهم وأنفسهم ..

والدولة فى مفهومها البسيط شعبٌ وأرض وحكومة ودستور وتشريعات ومجالس تشارك فى تسيير دفة الأمور .. وقوة تحمى هذا الكيان ولواء ونشيد.

وسنرى كيف استطاع الرسول ﷺ أن يقيم شعباً من طوائف المدينة المتنازعة .. وأما الدستور فسنجده على صورة من الروعة فى المعاهدة التى أبرمها الرسول بين اليهود وبين المسلمين.

لقد كفلت هذه المعاهدة حقوق الأفراد وحريتهم فى التملك والعقيدة والأمن .. وكفلت حماية المال والأعراض والنفس .. وأقرت كل مايكفل أمن الدولة الداخلى والخارجى ولاتعاون بين المجموعات المختلفة من السكان للدفاع عن المدينة.

وأما مجلس الشورى فقد تمثل فى نقباء الأوس والخزرج الاثنى عشر الذين اختيروا ليبايعوا الرسول على التكافل فى بيعة العقبة (الثانية) .. وكان الرسول يستشيرهم كلما حزبه أمر كما حدث فى غزوة بدر امتثالاً لقول الله تعالى (وشاورهم فى الأمر) (وأمرهم شورى بينهم).

وأما التشريعات الخاصة بكل فئة فلم يتدخل الرسول فى التشريعات الخاصة بالمجتمع اليهودى؛ وإنما أوجد نوعاً جديداً من التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية تمثل فى المؤاخاة التى جعلت من الأنصار والمهاجرين جبهة واحدة تتكافل فى المنشط والمكره والبأساء والضراء، وجعلت لكل مهاجر أخاً من الأوس أو الخزرج يتقاسمان الألم والأمل .. وقد بلغ من عناية الإسلام بهذه المؤاخاة أن جعلها أساساً للتوارث، دون موجبات الإرث من القرابة بالدم والعصبية.

وأما الحكومة فكانت تتمثل فى القيادة الدينية الحكيمة المتمثلة فى الرسول ﷺ .. وقد نص فى المعاهدة التى بين اليهود وبين المسلمين على أن مااختلفوا فيه من شيء فرده إلى الله ورسوله.

وأما النشيد القومى .. فقد كان الأذان.

وأما اللواء .. فكان مع الفيالق المحاربة دفعه الرسول إلى قائد أول غزوة أو سرية سيرها الرسول ﷺ بعد مقدمه الكريم بسبعة أشهر .. وكان لونه أبيض وكان معه رايتان سوداوان .

وسنقف مع الرسول لنرى كيف صاغ الدولة فأحسن صياغتها ؟ وكيف وجهها فأحسن التوجيه ؟ وقام على أمرها فأوصلها إلى حيث يريد الله لها من الظهور والعزة .. لقد كانت حياته الشريفة فى المدينة سلسلة متصلة الحلقات .. كل حلقة تسلم إلى الأخرى فى تناسق وتعاون وتآزر ، وكل عمل يقوم به كان مدروساً بعناية شديدة .. وله موقعه وحسابه فى مسيرة الأحداث وتطورها ، وكانت الفترة الزمنية القصيرة فى المدينة جهاداً متصلاً من أجل إرساء قواعد الإمبراطورية الإسلامية .

بناء المسجد :

أول عمل قام به الرسول بناء المسجد .. بناه فى الموضع الذى بركت فيه ناقته .. وقد كان يصلى فيه رجال من المسلمين .. وكان أسعد بن زرارة يجمع الناس ويصلى فيه قبل مقدم رسول الله ﷺ .. ثم سأل عن المكان الذى بركت فيه الناقة .. فقال معاذ بن عفراء[1] : إنه مِرْبَد لسهل وسهيل ابنى عمرو .. وهما غلامان يتيمان من الأنصار كانا فى حجر أسعد بن زرارة[2] .. وكانا غلامين لبنى النجار .. وقال ابن هشام[3] : بل كانا فى حجر معاذ بن عفراء .. وهو قد اشترك فى غزوة بدر واشترك فى قتل أبى جهل كما ذكره ابن هشام نفسه[4] .

وقد عرض الرسول عليهما شراءه فقالا له : بل نهبه لك يارسول الله ، فأبى ،

---

(١) المربد المكان الذى يجفف فيه التمر

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٦ وجـ ١ ص ٢٥ .

(٣) السيرة جـ ٢ ص ١٠١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٣ و٢٥٣ .

فابتاعه منهما بعشرة دنانير.. وكان فيه بعض الشجر والنخل وقبور المشركين، فأمر الرسول بالنخل والشجر فقطع وصف فى القبلة ونبشت القبور.. وقيل: إن هذا المكان الذى بنى الرسول فيه مسجده كان حائطاً لبنى النجار.. فقد روى من طريق آخر أن الرسول قال: تؤمنونى بحائطكم.. فقالوا: لا، والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله؛ ويروى أنه أبى إلا الثمن [1].

وقد بنى المسجد باللبن، واشترك الرسول فى بنائه، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه وهو يرتجز:

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

ويقول:

هذا الحمّال لاحمال خيبر هذا أبر ربّنا وأطهر

وجعل يحمس المهاجرين والأنصار ويحفزهم للعمل، ويعطيهم من ذات نفسه وأشواق روحه الأسوة والقدوة.. فانطلقوا إلى العمل فى ثقة وشوق وفناء نبيل.. جعلوا يرتجزون وهم يحملون اللبن:

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

وجعل علىّ رضى الله عنه يرتجز:

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

لقد وقف الرسول ﷺ، فوقفوا معه يبنون حياتهم وغدهم.. وكان أول عمل قاموا به بناء المسجد حتى يعدّهم الرسول فى هذا المسجد على عين الله إعداداً جديداً روحيًّا ونفسيًّا وجسميًّا ويربطهم بالمسجد.. وما أعظم أن تكون البدايات

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى جـ١ ص ٩٩ ط ٢ سنة ١٣٨٢هـ – التجارية – القاهرة.

بناءً وأن يكون البناء مسجداً يبنى على أسس من التقوى ! ولكم كان يشوق الرسول أن يبنى مسجداً بعد أن تعسر عليه بناؤه فى مكة ؛ لأنه يعلم أن إعداد الرجال يبدأ به والإعداد للمستقبل ينطلق منه .. وبناء الدولة الرشيد يكون من محاريب الصلاة والصفاء والخشوع والقرب من الله .

بنى الرسول المسجد .. وجعل قبلته إلى بيت المقدس وعمده الجذوع ، ولم يشأ أن يسقفه وإنما اكتفى بسقفه بالجريد .. ولما قيل له : ألاتسقفه ؟ قال : لاعريش كعريش موسى .

الرسول يقدر العاملين :

دخل عمار بن ياسر على رسول الله ﷺ وقد أثقلوا ظهره باللبن فقال : يارسول الله .. قتلونى .. يحملون علىّ مالا يحملون .

قالت أم سلمة[1] زوج النبى ﷺ : فرأيت رسول لله ﷺ ينفض فروته[2] بيده .. وكان رجلاً جعداً وهو يقول : «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك .. إنما تقتلك الفئة الباغية ؛ وجعل عمار يرتجز برجز علىّ رضى الله عنه :

لايستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيها قائماً وقاعدا

وظل يردده حتى ظن بعضهم أنه يقصده ، فغضب وقام ليضربه ، فغضب رسول الله ﷺ وقام إلى عمار ثم قال :

« مالهم ولعمار ؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ؟ إن عماراً جلدة مابين عينى وأنفى .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) فى الأصل وفرته وصحته ماذكرت .

وروى عن الشعبي قال : إن أول من بنى مسجداً عمار بن ياسر وما ذاك إلا تقدير للدور والجهد اللذين قام بهما عمار .

وظيفة المسجد :

كان هذا المسجد على تواضعه العظيم كل شيء بالنسبة للمسلمين جميعاً .. كان معبداً .. ومجلساً للشورى ومقرًّا للسلطة التنفيذية ومركزاً للقيادة العليا .. وبيت الأمة التى تصدر عنه الدعوة والشرائع إلى الخلق .. وجميع الخطط والتدابير الإدارية والسياسية والعسكرية ؛ كما كان قاعة لاستقبال الوفود .. وحلقة للدرس والوعظ والفتيا وجامعة للعلم .. يلتقى فيه المسلمون يؤدون شعائرهم ويعرضون مشاكلهم .. ويبحثون أمور دينهم ودنياهم .. ويضعون برامج غدهم .. والخطوط العريضة لحياتهم القابلة .. ويتدارسون مواقف أعدائهم .. ويقررون أساليب مواجهتها .

كان هذا المسجد على سذاجة بنائه وأثاثه يمثل نقطة الانطلاق وقلعة الوثوب .. ومركز إعداد القادة والتدريب .. وغرفة عمليات لم يدعها القائد ولم يتركها إلى أن لحق بربه .. أدار فيها كل عملياته .

من هذا المسجد الصغير تمت تدريجاً الإدارة الإسلامية إلى أن شملت الجزيرة كلها .. ودانت الروم والفرس لها .. وفى هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة وأحوال طارئة .. ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية وما صدرت عنه من الإدراك كانت بذوراً لأوسع الإدارات الإمبراطورية وقواعد لأكبر إصلاح بشرى[1] .

---

(١) بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ط ٢ سنة ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤ م ـ دار الكتاب العربى - مصر - ص ٧٣ .

مساكن أزواجه :

ثم بنى الرسول إلى جانب المسجد مساكن أهله .. حتى يظل إلى جانب المسجد بكل ماأثبتنا له من وظائف .. وكانت بيوته التسعة بناء متواضعاً جدًّا .. بعضها من جريد مطيّن بالطين .. وسقفها جريد .. وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض .. مسقفة بالجريد أيضاً .. ينال سقفها باليد .. وكانت حجره أكسية من شعر مربوطة فى خشب عرعر .. وكان بابه عليه الصلاة والسلام لاحلق له .. وكان سريره خشبات مشدودة بالليف[1] .

بناء وأثاث متواضع لايصلح لأقل الناس فى عصرنا .. ولكنهما يصوران نظرة الرسول إلى الحياة وإقباله بكيانه على العمل والنفاذ إلى الأمور .. بعيداً عن الزخرف والمظهر والوجاهة .. وكان قرب دوره من مقر القيادة إصراراً على أن يبقى قريباً من غرفة العمليات ليدير منها عجلة الأمور كلها .

مقدم أهله :

ثم بعث الرسول ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة .. فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه .. وسودة بنت زمعة زوجته .. وأسامة بن يزيد وأمه أم أيمن .. وأما زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص ابن الربيع من الخروج .. وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر ومنهم عائشة .. فنزلوا فى بيت حارثة بن النعمان .. فلما فرغ من بناء مساكن أهله بنى بعائشة فى البيت الذى بناه لها شرق المسجد وجعل لسوره بيتاً آخر[2]

---

(١) السيرة جـ ٢ هامش ص ١٠٣ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ .

وأقام الرسول بالمدينة حتى بنى له فيها مسجده ومساكنه ، واستجمع له إسلام هذا الحيّ من الأنصار .. فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا بعض القبائل .

الأوضاع فى المدينة :

جاء الرسول ﷺ إلى المدينة والأنصار أوسهم وخزرجهم قريبو عهد بيوم بعاث .. وهو اليوم الذى قال فيه الرسول : كان يوم بعاث يوماً قدّم الله فيه لرسوله .

وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج .. وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .. والعداوة القديمة بينهما تثير الأحداث الجديدة .. واليهود يذكون الفتن ويتربصون ويخشون سوء المنقلب إذا مااتحد الأوس والخزرج .. وكثيراً ما أثاروا الفتنة وأشعلوا نار الخلاف .. فتسل السيوف .. وتكاد تطل الدماء .. وقصة شاس ابن قيس ودسه غلاماً يثير بينهم ماحدث بيوم بعاث لما رأى من اجتماعهم فى مجلسهم يتحدثون – معروفة[1] .

والمهاجرون لاحول لهم ولا طول .. إلا حصول اللاجئ المستظل بحمى أخيه يحس أنه لايحب أهله وعشيرته فى مكة .

والذى لاشك فيه أن الرسول استقبل من المسلمين بحماس شديد وعظيم .. ومن اليهود والمشركين ببشر لابأس به .

وقد أمل كل فريق أملاً :

أمل الأوس والخزرج أن يكون ذلك ختاماً لعهد الحروب .. وأن يصلح الله

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٤٦.

بينهم .. وأمل اليهود طمعهم فى أن يستخدموا العربى الخارج على عبادة الأوثان المنبوذ من أهله .. والمعروف لأهل الكتاب القريب من توحيدهم .. يطمعون فى أن يستخدموه للاعتزاز به على العرب .. ومقاومة النصرانية فى الشمال .

يقول ابن القيم[1] : لما قدم الرسول إلى المدينة صار الكفار ثلاثة أقسام :

قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولايظاهروا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة .

وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه .. بل انتظروا مايئول إليه أمره وأمر أعدائه .. ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن .. ومنهم من كان يحب ظهور أعدائه عليه وانتصارهم .. ومنهم من دخل معه فى الظاهر .. وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين .. وهؤلاء هم المنافقون .. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى .. فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن .. وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .

وقد رأى الرسول ﷺ بثاقب نظره حاجة هذا الخليط من الناس إلى السلام وإلى التنظيم الداخلى .. وأدرك حاجة المدينة كلها للأمن الخارجى .. فحشد أمره لينظم أوضاع المدينة وليوجد أنواعاً من الأمن تدخل الطمأنينة على القلوب .. وليوحد الأنظار ويوجهها إلى العدو الخارجى .

ورأى الرسول هذا الخليط البشرى عرضة لدعوى العصبية ، فأراد أن ينزع بمبضع النطاسى البارع سبب العصبية ومضغتها وأن يوجد فى شرايينهم دماء الحب ، وأن يزرع فى قلوبهم شجر الإخاء .. فيتحدوا ويتآلفوا : أى أنه أراد أن يجعل من هذا الشتات وحدة .. ومن هذا التمزق قوة .. وأن يوحد الصفوف قبل

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٠ – ٧١ .

توحيد السيوف .. وأن يؤلف من هذا الخليط جبهة واحدة تصمد أمام سيل الأحداث الجارف فماذا هو فاعل ؟

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

كان أول مابدأ به فى ميدان المجتمع .. أن أقام المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ..

وقد ذكر ابن هشام المعاهدة بين المسلمين وبين اليهود قبل المؤاخاة .. وذكرها ابن القيم وغيره بعد المؤاخاة .. وقد آثرنا مافعله ابن القيم ؛ لأنه الأليق عقلاً والأسبق عملاً .

وقد ذكرنا دواعى المؤاخاة فى بحث خاص رددنا فيه على من يزعم أن المؤاخاة كانت فى مكة نثبته هنا لأن هذا موضعه.

المؤاخاة كانت فى المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم)

الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحشر.

نشرت بعض المجلات الإسلامية التى تصدر فى إحدى الدول العربية بحثاً لأستاذ فاضل انتهى فيه إلى أنه كانت هناك مؤاخاة بين المهاجرين فى مكة قبل المؤاخاة التى حدثت فى المدينة بين المهاجرين والأنصار.

وردًّا على هذا الرأى وتمحيصاً لهذا الموضوع سنبين أحوال أهل مكة والمدينة .. ونذكر دواعى المؤاخاة التى رآها الأستاذ الكريم ، ونعقب عليها بالدواعى الحقيقية لمؤاخاة المدينة .. ثم نستعرض رأيه وأدلته التى استشهد بها ونناقشها ونستخلص بعض النتائج تصحيحاً للمسار التاريخى للدعوة الإسلامية .

أولا : الحالة فى مكة :

يصور إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكة وهو يتجه بكليته إلى الله سبحانه وتعالى فى عبير عاطفى خالد وهو يُودِعُ مكة فلذة كبده إسماعيل وأمه (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)[1] .

وقد يتصور بعضٌ أن مكة كانت بائسة محرومة لأنها فى واد غير ذى زرع .. وقليل منهم يعلمون أنها فى وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت من أغنى القرى .. بل كانت سوقاً من أربح الأسواق التجارية فى العالم القديم .. وكانت قريش فيها من أعظم التجارة همة وأخبرهم بحال من حولهم من الأمم .. ولعل الموقع نفسه والحرمان الطبيعى هو الذى حفز هممهم وضاعف نشاطهم ، فساحوا فى الأرض وابتغوا التجارة[2] .

لقد استفادت من موقعها المتوسط على محور الواحات الممتد بين اليمن والشام

---

(١) الآية ٣٧ إبراهيم .
(٢) بطل الأبطال جـ ٢ ص ٨٣ .

وبين البحر الأحمر والخليج الفارسي ، واستطاعت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة ورحلة الصيف إلى الشام وفارس أن تهيئ لها اقتصاداً قويًا .

وكان تنظيم هذه القوافل مظهراً لتضامن قريش وتعاونها الاقتصادى ، وكان بعض القرشيين قبل تنظيم هذه القوافل التجارية إذا أصاب واحداً منهم فقر خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ويؤثروا الموت على سؤال الناس وإذلال نفوسهم .. إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه فأنكر مايفعله هذا البعض ووجه القرشيين إلى تنظيم روابطهم التجارية مع الشمال والجنوب ، فما ربحه الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان غنيهم كفقيرهم .. وجاء الإسلام وهم على ذلك .. فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش .. وإلى هذا يشير شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم   حتى يكون غنيهم كالكافى [1]

كان أهل مكة فى بسطة من الرزق ومتاع بكل مالذ وطاب من منتجات العالم القديم .. وإلى ذلك تشير الآية الكريمة (أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يُجْبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون) [2]

ولقد قدّرت صادرات مكة وقت الهجرة بخمسين ومائتى ألف دينار من الذهب .. وإذا كانت هذه قيمة الصادرات أدركنا قيمة البضائع التى كانت تتبادلها مكة وهى وسيط بين اليمن والحبشة والإمبراطوريتين الرومانية والفارسية .. وكانت هذه التجارة الواسعة غير محصورة فى بيت أو فريق من الناس [3]

---

(١) بلوغ الأرب من أحوال العرب للألوسى جـ ٣ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ طبع الأهلية – مصر

(٢) الآية ٥٧ – القصص .

(٣) بطل الأبطال ص ٨٣ .

كان المكيون يشتركون فى قوافل التجارة كل على حسب قدرته المالية ، ولهذا كانت القوافل كبيرة .. والقافلة التى حاول المسلمون اعتراضها والتى كانت سبباً فى غزوة « بدر » كانت مكونة من ألف بعير فيها أموال عظام تقدر بخمسين ألف دينار[1].

وروى أن أبا سفيان لما أحس الخطر على القافلة قبيل بدر استنهض مكة كلها ، فخرج إليه ألف من المقاتلة معها مائة من الخيل وسبعمائة من الإبل .. ولما أصيبت قريش فى بدر تبرع أهل مكة بقافلة أبى سفيان كلها ليعدوا بها للانتقام من محمد وأصحابه .. وقد كانت أرباح مكة من هذه التجارة الواسعة تقدر بخمسين فى المائة من رأس المال مما أتاح لها حياة من البذخ تلحظونه فى كرم أهلها وهم يضيفون حاجّ الجزيرة كلها .. ويسرفون فى اللهو بالخمر والميسر والقيان والطرب[2].

كانت هذه أحوال مكة قبل الإسلام وبعده .. وبعد أن هاجر المهاجرون إلى المدينة .

ثانيا : أحوال أهل المدينة :

لم تكن بهذه المثابة .. لقد أصاب أهلها جهد شديد بعد الهجرة لم يسلم منه الرسول نفسه .. يؤيد ذلك ماروى أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يارسول الله ، أصابنى الجهد ؛ فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً .. فقال النبى ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لاندخر له شيئاً

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٦٦ تحقيق وشرح محمود شاكر طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) بطل الأبطال ص ٨٣ .

فقالت : والله ماعندى إلا قوت الصبية قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت .. ثم غدا الرجل على رسول الله فقال : لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة وأنزل الله تعالى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1] .

والمهاجرون صودرت أموالهم .. وحبس متاعهم فى مكة .. وقد جاءوا إلى المدينة وليس لهم مايملكون سوى إيمانهم : فهذا مصعب بن عمير لا يجد مايتستر به ، وهذا على بن أبى طالب يطل من ثقب الباب على يهودى ليعمل فى بستانه .. كلما نزع دلواً نال تمرة حتى نال حفنة ، وهذا رسول الله ﷺ يخرج إلى المسجد فيجد أبا بكر وعمر فيقول لهما : ما أخركما ؟ فيقولان : الجوع .. فيقول : وما أخرجنى إلا الجوع !

وفى المدينة أصيب المهاجرون بحمى يثرب من أول حلولهم فيها نظراً لاختلاف المناخ عنه فى مكة .. ويروى أن جمعاً من الصحابة المهاجرين أصيبوا بالحمى عقب الهجرة .. بسبب الوباء واختلاف المناخ ، واشتدت عليهم الحمى كما اشتد بهم الحنين إلى موطنهم الأول وذكرياتهم ، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق وبلال بن رباح وعامر بن فهيرة خادم رسول الله وأبى بكر فى الهجرة .

وتروى السيدة عائشة رضى الله عنها أنها سألت عامر بن فهيرة وهو محموم فقالت له : كيف تجدك يا أباعامر ؟

---

(١) الآية ٩ - الحشر .

فأجاب بقوله :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه   أن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه   كالثور يحمى جلده بِروْقِه

وقد تشاءموا من عقم نسائهم .. حتى إن امرأة الزبير لما ولدت كان نفاسها عيداً .. وصحبهم الفقر بعد أن تركوا أموالهم فى مكة ذلك الأمر الذى لامخرج منه إلا بالجد والعمل .. ورسول الله قد برهن فيه على فيض من العقل .. وحسن السياسة لم يؤت مثله مصلح ولا فاتح فى زمن من الأزمان[1].

وقد زادت وحشتهم وزاد شوقهم إلى أهلهم وذوى قرابتهم .. وبدأت العوامل النفسية والاجتماعية تعمل عملها فى نفوسهم ، وبدأ النزوع الفطرى إلى الوطن والأهل يراودهم صباح مساء ، وزاد من قلقهم ووحشتهم شعورهم بالضيق .. واشتداد ظروفهم المادية والنفسية والاجتماعية عليهم .. وقد شعر الرسول بما يشعرون وأحس بما به يحسون فدعا ربه .. وكثيراً ماكان يدعوه .. « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » .

ولم تكن الزكاة قد فرضت بعد .. فلم تفرض إلا فى السنة الثانية للهجرة على الأصح .: لأنها من ملامح المجتمع المسلم ، ولم تكن ملامحه قد تشكلت فى أرض الشرك .. وإنما كانت هناك الصدقة .. والزكاة التى فى السور المكية يراد بها الصدقة ، لا الزكاة المفروضة بشروطها وأركانها على الوجه الذى فرضت عليه بعد .

ولقد وصف رسول الله ﷺ حال المسلمين وماهم عليه من جهد وشدة فى غزوة بدر ؛ كما وصف حال المشركين فقال : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلها وفخرها .. جاءت تحاربك وتكذب رسولك .. ونظر إلى المسلمين وقال : « اللهم

---

(١) بطل الأبطال ص ٨٢ ، ٨٣ .

إنهم جياع فأطعمهم عراة فأكسهم ، حفاة فألبسهم .. اللهم ؛ إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض » .

وقد قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) آل عمران/ ١٢٣.

قال ابن كثير : كان العدو مابين التسعمائة والألف فى سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسوّمة والحلى الزائدة ، والمسلمون كانوا ثلثمائة عشر رجلاً.. منهم فارسان وسبعون بعيراً والباقون مشاة ليس معه من العدد جميع يحتاجون إليه »[1].

ومن يقرأ معاهدة الرسول مع اليهود يجد أنه قد نص فى بعض بنودها على أنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولانفساً ولايحول دونه على المؤمن[2].

ومن يتابع الغزوات والسرايا التى بدأت بعد سبعة أشهر فقط من مقدم رسول الله المدينة يجد أن مقاتليها كانوا جميعاً من المهاجرين فقط .. ولم يشترك واحد من الأنصار فيها : فسرية عبيدة بن الحارث وسرية حمزة وسرية سعد بن أبى وقاص وسرية عبد الله بن جحش وهى التى سبقت غزوة بدر الكبرى لم يكن فيها واحد من الأنصار ، ولم يشترك أنصارى واحد .. وكانت تعنى قوافل التجارة لأن قريشاً أخرجت المسلمين من ديارهم وأموالهم بغير حق ، وقد كان عدد هذه الغزوات والسرايا ثمانياً فى سنة وبضعة شهور .. مما يدل على أن العامل الاقتصادى كان له أثره البالغ .. وكان هذا نوعاً من الدفع الذى تكفل الله به لحماية الأديان ومنع الفساد فى الأرض : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٠ — الحلبى القاهرة .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٨٠٧ .

إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[1].

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)[2].

ثالثاً : دواعى المؤاخاة :

يذكر الباحث الكريم أن المؤاخاة فى مكة كانت ضرورية لتقوية صفوف المسلمين ولزيادة تعاونهم فى مجالات الدعوة والعقيدة والحياة ولتثبيت قلوب المسلمين .. وأن اضطهاد قريش للمسلمين فى مكة دعا رسول الله إلى أن يقيم بين المسلمين فيها مؤاخاة كريمة نبيلة يتقاسم فيها المسلمون مايملكون من مال .. حفظاً للحياة وقياماً بمئونة الأهل وسداً لحاجات الأطفال والنساء . ومعاونة على مواصلة الجهاد فى سبيل الله والعقيدة والقرآن .

وهذا لم يثبت .. ولم يرد ولم يصح .. بل العكس هو الثابت وهو الصحيح .. فقريش كانت قدراتها المالية كلها موجهة بصفة أساسية إلى النظام التجارى الذى حددنا كلٌ على حسب طاقته أى أنها كلها مشتركة فى القوافل .. وكانت وحدة القبيلة وتماسكها يمنعان من تلك المؤاخاة بما تحوى من تناصر وتآزر استغناء بالعصبية القبلية التى كانت وراء إسلام حمزة[3] رضى الله عنه وقريش عندما حاصرت رسول الله وأبا طالب وقاطعتها اقتصادياً واجتماعيًّا .. وأرادت الضغط بذلك ليتوقف الرسول عن الدعوة .. لم يكن الرسول وأبو طالب .. وحدهما بل انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا[4] إليه ولم تكن

---

(١) الآيتان ٤٠ - ٤١ الحج .

(٢) الآية ٢٥١ - البقرة .

(٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٠ .

(٤) المصدر جـ ٢ ص ٣ .

شروط المقاطعة التى اتفقوا عليها فى صحيفتهم المشهورة مقصورة على رسول الله وأبى طالب وحدهما ، وإنما شملت بنى هاشم وبنى المطلب . . ولم يخرج إلا أبو لهب . . وقد نال بنى هاشم وبنى المطلب جهدٌ شديد مع الرسول وأبى طالب لولا أبو البخترى وحكيم بن حزام ومطعم بن عدي النوفلى[1].

ويذكر من دواعى المؤاخاة فى المدينة بعد الهجرة حالة المهاجرين .. فقد كانوا غرباء دون مال ودون متاع ودون دور يقول : وفى المدينة وبعد الهجرة حدثت مؤاخاة (ثانية) شارك الأنصار المهاجرون فيها فى أموالهم ودورهم ومتاجرهم وكل مايملكون مواساة للذين قدموا عليهم من المهاجرين من صحابة رسول الله ممن فارقوا ديارهم وأموالهم ودورهم وتجارتهم وأراضيهم ومساكنهم .

وهذا مانوافقه عليه عدا قوله مؤاخاة (ثانية) .. لأن المؤاخاة استدعتها دواع كثيرة بعد الهجرة .. وهذا نتفق جميعاً عليه ، أما فى مكة فلم يكن هناك دواع إليها .. ويؤكد ماذهبنا إليه الأسباب الآتية إلى جانب الأسباب التى سبقت :

أولاً : الآيات التى سبقت آية المؤاخاة مباشرة .. والتى وقعت آية المؤاخاة فى حيزها وسياقها تتعرض للناحية المادية وتؤكدها وآية المؤاخاة فى سورة الحشر .. وهى تصور ماحدث لبنى النضير عندما أجلوا عن المدينة وتتعرض لغنائمهم وفيئهم : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون .

---

(١) المصدر جـ ٢ ص ٣ - ٥ .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1].

فقد ذكرت الآيات أن الفىء الذى غنمه المسلمون من بنى النضير من غير قتال هو لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايئول إلى الأغنياء وهم الأنصار.

يقول ابن كثير : أى جعلنا هذه المصارف لمال الفىء كى لا يبقى مأكلة يتقلب فيها الأغنياء ؛ ثم ذكر أن من مصارف هذا الفىء الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله .. الآية .

وقد قدم صفة الفقراء على المهاجرين .وهى أبلغ مما لو قيل المهاجرين الفقراء .. ليدل ذلك على شدة حاجتهم للمال .. وهو أدنى من المسكنة وأشد منها .. فالمسكين من عنده قوت يومه والفقير لايملكه .. ثم وصف المهاجرين بأنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وهو دليل عظيم على حالتهم النفسية والاقتصادية والاجتماعية .. ثم يذكر بعد ذلك الأنصار .. وقد وصفهم أولاً بأنهم تبوءوا الدار والإيمان وهذا إشارة إلى بقائهم فى دارهم .. ثم وصفهم بالإيثار الحق النابع من عمق إحساسهم وصدق مشاعرهم ، فهم يحبون من هاجر إليهم ولايبغضونه ، ولايحسدون المهاجرين على ما أعطاهم الله من فضله من فىء بنى النضير دونهم .. يؤيد ذلك مارواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قالت الأنصار لرسول الله : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ؛ قال : لا .. فقالوا : أتكفوننا المئونة ونشرككم فى الثمرة قالوا : سمعنا وأطعنا »[2] .

---

(١) الآيات ٧ – ٩ الحشر .

(٢) رواه البخارى .

فآية المؤاخاة وقعت فى سياق التعبير عن الجانب المادى والنفسى والاجتماعى القلق فى حياة المهاجرين .. وإن الله حين أسهم لهم فى الفيء وصف الأنصار بما يقوى جانب اليقين فى نفوسهم فلا يضيقون ولايحسدون .. روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يارسول الله : ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأمر كله قال : لا .. ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم .

ثانياً : الآية التى أذن فيها للمسلمين بالقتال وهى قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)[1] هذه الآية تعلل الإذن بالجهاد والقتال بأن المسلمين قد ظلموا وأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق وبغير سبب إلا إيمانهم واعتقادهم الحق .. والظلم والإخراج من ديارهم بغير حق سببان كافيان للإذن بالقتال لرد الظلم والحصول على معادل لأموالهم ومتاعهم ودورهم المصادرة .. وهى حقوق مادية للمهاجرين .

ثالثاً : ولقد بلغ من اعتناء الإسلام بالمؤاخاة أن جعلها من موجبات الإرث دون ذوى الأرحام كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد[2] .

ووصل بهذا التآخى فى العقيدة إلى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها وجعل الميراث للأخ فى العقيدة دون الأبناء والآباء من غيرهما .. وقد بقيت المؤاخاة موجباً من موجبات الإرث إلى حين وقعة بدر حتى نزل قوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) الأنفال / ٧٥ . . وقد ذكر ابن هشام أنها بقيت إلى عهد عمر[3] .

(١) الحج الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) جـ ٢ ص ٥٦ .

(٣) ابن هشام جـ ٢ : ١١٠ .

وقد قال القرطبي عند قوله سبحانه وتعالى (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم . .) الآية . . قال : « عندما أجلى الرسول بني النضير وأخذ غنائمهم جاء إلى الأنصار فقال لهم : تأخذون أنتم والمهاجرون هذا الفيء أنتم النصف وهم النصف ويبقون معكم في منازلكم أو أعطيه المهاجرين كله ويستقلون عنكم ؟ فقالوا : بل أعطه المهاجرين ويستقلون عنا أي في دور خاصة بهم ومتاع خاص بهم » .

ويؤيد هذا ماذكره ابن القيم في زاد المعاد [1] .. فقد ذكر « أنه لما انهزم المشركون في حنين غنم الرسول غنائم كثيرة .. فأمهلهم بضع عشرة ليلة ليأتوا إليه مسلمين ثم بدأ بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ثم أمر زيد بن حارثة بإحضار الغنائم والناس ثم فرقها على الناس .

ولما أعطى رسول الله ﷺ من تلك العطايا الكبار في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار شيء منها وجد هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم لقي والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يارسول الله . . إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب .. ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء .. قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومي قال له الرسول : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة .

ثم أتاهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يامعشر الأنصار ، مقالة بلغتني منكم وجدتموها في أنفسكم .. ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله بي .. وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل ثم قال : ألا تجيبوني يامعشر الأنصار ؟

---

(١) جـ ص ١٨٨ – ١٨٩ .

قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله .. لله ولرسوله المنّ والفضل ..

قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم .. أتيتنا مكذباً فصدقناك .. ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فواسيناك .. ؟

أوجدتم عليّ يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به .. ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .. ولو سلك الناس شعباً وواديا وسلكت الأنصار شعباً وواديا لسلكت شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار .. والناس دثار .. اللهم ارحم الأنصار .. وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظًّا »

وكلام القرطبي إلى جانب ماذكره ابن القيم يفيد أموراً ثلاثة :

الأمر الأول : أن السبب الأصيل للمؤاخاة هو قلة مابأيدى المهاجرين من مال ومتاع يستطيعون به مواجهة الحياة وأعباءها ومتطلباتها .

الأمر الثانى : أن هذا العامل الملح ظل باقياً حتى غزوة بدر ، كما قال ابن القيم حتى نزلت الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) أو حتى جلاء بنى النضير حيث استقل المهاجرون بالفيء الذى استطاعوا به مواجهة الحياة . . وكان فيه شبه استقلال ذاتى عن كاهل الأنصار .

الأمر الثالث : كان بعض المهاجرين غنيًّا فى مكة .. وقد ترك ماله ومتاعه وكل مايملك عند هجرته .. فلما صارت حاله إلى ماصارت إليه من فقر وغربة وهو أمر له آثاره التى لاتخفى .. تعبت نفسه حتى إن أبابكر رضى الله عنه فى غزوة بدر نادى ابنه عبد الرحمن وكان مايزال مشركا فقال له :

أين مالى ياخبيث ؟

فرد عليه عبد الرحمن فى سخرية وشماتة :

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب[1]

أى لم يبق غير سلاح وخيل لقتال من شاب وضل .

رابعاً : ولقد كان العرب أهل عصبية يعتزون بها ويتفاخرون .. وقد شعر المهاجرون بأنهم ضعفاء .. غرباء ليست لهم تلك العصبية ، وكان لابد من تدارك هذا الأمر .. والمشرع الذى ينظر إلى المقتضيات الإنسانية والنفسية والاجتماعية فى تشريعه مشرع حكيم .

ويذكر الأستاذ عبد الرحمن عزام[2] أن رسول الله بعد هجرته رأى هذا الخليط من أتباعه فى يثرب عرضة لدعوى العصبية ، فدعاه إلى التآخى وجعل للرجل من قريش أخاً من الأوس وللآخر أخاً من الخزرج مازال يؤاخى بين هذا وذاك .. ويعقد بينهم أواصر أخوة فى الله حتى شمل القبائل والبطون ، ووصل بهذا التآخى فى العقيدة إلى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها ، وجعل الميراث للأخ فى العقيدة دون الأبناء والآباء وغيرهم .

هذه هى دواعى المؤاخاة وهى كلها تشير إلى الحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية القلقة التى كان يحياها المهاجرون فى المدينة والتى من أجلها كانت المؤاخاة التى حلت محل العصبية القبلية فى الفخر ومحل الأرحام فى الإرث .

لقد أقامها الرسول تثبيتاً للألفة وأواصر الأخوة وإقامة لقواعد المجتمع على أسس من المحبة والرحمة والعطف والنبل والتعاون والتكافل والتراحم ، بل إن الرسول أراد بعد بيعة العقبة الثانية أن يوجد نوعاً من التكافل بين عنصرى الأنصار

---

(١) جـ ٢ ص ٢٠٣ السيرة لابن هشام .

(٢) ص ٧٣ .

الأوس والخزرج .. فقرر نوعاً من التكافل أو الكفالة العامة بين الأنصار أوسهم وخزرجهم لدفن ماكان بينهم من حروب ونسيان ماكان يسودهم من إحن وخلافات .. فبعد أن بايع النقباء رسول الله بيعة العقبة (التانية) قال لهم كما يرويه ابن إسحق :

«أنتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى يعنى المسلمين .. قالوا : نعم»[1].

استعراض لأدلته والرد عليها :

النصوص التى أوردها الباحث الفاضل فى هذا الشأن والتى استشهد بها فيها اضطراب كثير.

فقد نقل عن ابن الأثير من كتابه «أسد الغابة» جـ ٢ ص ٢٧٩ وذكر أن الرسول آخى بين الزبير بن العوام وبين عبد الله بن مسعود كما آخى بين الأنصار والمهاجرين بمكة .. فلما قدم الزبير المدينة وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سلامة بن وقش.

ثم ينقل عن المصدر جـ ٣ ص ٢٩ قوله : «لما أسلم طلحة بن عبد الله والزبير ابن العوام آخى رسول الله بينهما بمكة قبل الهجرة فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى رسول الله بين طلحة وبين أبى أيوب الأنصارى.

والاضطراب فى الرواية ظاهر وهو فى الحق لم يقف عند ابن الأثير .. بل إن ابن هشام اضطرب فيما يرويه عن ابن إسحق حين يذكر أن الرسول جعل الزبير بن العوام وسلامة بن وقش أخوَىْ عبد الأشهل أخوين .. ويقال : بل إن الزبير وعبد الله ابن مسعود من بنى زهرة كانا أخوين .. فالتعبير بقوله (يقال) يفيد الشك ؛ فإن

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٦.

الزبير وابن مسعود كانا أخوين فى المدينة لا فى مكة وهو مايؤكده الباحث فى صدر حديثه ص ١٥ من مجلة منار الإسلام من أنه كان ابن الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين .

أما طلحة بن عبد الله الذى ينقل الأستاذ الكريم عن ابن الأثير أن الرسول آخى بينه وبين أبى أيوب الأنصارى فى المدينة .. فإن ابن هشام فى سيرته يذكر أن طلحة بن عبد الله وكعب بن مالك كانا أخوين ومصعب بن عمير بن هشام وأبو أيوب خالد بن زيد أخو بنى النجار أخوين[1] .

ويشير ابن القيم فى زاد[2] المعاد إلى أنه قد قيل : إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية .. واتخذ عليًا أخاً ..

فهو قد أشار إلى هذه المؤاخاة التى قيل : إنها حدثت فى مكة وذكر أنها رواية ضعيفة . لاستغنائهم بأخوة الإسلام فى مكة وأخوة الدار وقرابة النسب .. وماحدث فى مكة بأخذ صفة الصداقة والتآخى والتآزر بين أصدقاء أسلموا مع بعضهم كطلحة والزبير .

خاتمة بالنتائج :

١ - كان هدف المؤاخاة إيجاد نوع من الألفة بين العناصر الجديدة المهاجرة التى زرعت فى مجتمع جديد لم تألفه وبين هذا المجتمع وتقوية جبهة المسلمين تغلباً على المشاكل الاقتصادية والنفسية والاجتماعية التى تواجههم .. وتلافياً لما قد يصيب المهاجرين والأنصار معاً من خلاف .. وقد قرر الرسول نوعاً من التكافل بين الأنصار أنفسهم بعد بيعة العقبة (الثانية) تلافياً لخلافاتهم الماضية .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٩.

(٢) جـ ٢ ص ٥٦.

٢ – المؤاخاة التى ذكر الكاتب الفاضل أنها حدثت فى مكة والتى ذكر أنها مجهولة لم يشر إليها أحد من مؤرخى السيرة على الإطلاق ولم يكشف عن فكرتها أحد من قبل .. ولم يُكتَبْ عنها شىء قبل بحثه ، هذه المؤاخاة تحدث عنها ابن القيم فى زاد المعاد وضعفها ورفضها .. وأثبت بالدليل ضعفها ورفضها .. ويكون عدم إشارة المؤرخين أو تعرض لها لذلك السبب .

٣ – لو ثبتت هذه المؤاخاة لكانت ذات مظهر بارز فى تاريخ الإسلام ولا يمكن تجاهلها .. وتاريخ الدعوة الإسلامية لايؤرخ له بخبر الواحد .

٤ من يقل بوجود تلك المؤاخاة فى مكة يجهل الحياة المكية بوحدتها وتماسكها وعصبيتها .

٥ – المؤاخاة لم تكن لها دواعيها فى مكة ؛ لأن المسلمين كانوا فى دارهم وأموالهم وبين أهليهم ، وكانوا يستغنون بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب .. أما فى المدينة فالأمر مختلف تماماً ، وقد أراد الرسول أن يلغى الاعتماد على العصبية وأن يوجد نوعاً من التآخى فى العقيدة يحل محل أخوة الدم ويصبح موجبا للإرث حتى تقوى العلائق وتزداد تمكناً .

٦ – النصوص القرآنية والنبوية التى وصفت حال المهاجرين تصور فقرهم وإخراجهم من الأهل والمال .. وشعورهم بالقلق والضيق المادى والنفسى .

٧ – الإذن بالقتال علل بأن المهاجرين ظلموا وصودرت أموالهم وممتلكاتهم .

٨ – النصوص التى استشهد بها الباحث الكريم لوحظ عليها الاضطراب ، وهى ليست قطعية ومطعون فيها .

٩ – ماذكره الباحث لايعدو أن يكون نوعاً من الصداقة بين رجلين كانا صديقين قبل الإسلام وأسلما معاً ، فآخى الرسول بينهما تأكيداً لتلك الصلة .. ولو

كانت المؤاخاة قائمة فى مكة بصورة عامة لضربتها قريش وحاربتها .. وهو مالم نسمع عنه .

من هذا كله يتضح لنا أن المؤاخاة كانت فى المدينة للدواعى التى ذكرناها .. وكانت غايتها تقوية بناء المجتمع السليم ، ليصمد فى وجه المشكلات الملحة والأحداث العارضة .. وإيجاد نوع من المحبة والألفة بين عناصره المختلفة فى النشأة والبيئة .

ولقد كان المهاجرون غرساً زرع فى غير بيئته يلزمه الرعاية والتعهد ، وكان فراقهم لكل معطيات الحياة يجعلهم قلقين .. فأقام النبى هذه المؤاخاة ، ليجعل من الأنصار والمهاجرين جبهة واحدة ويداً واحدة يخرج بهم على الناس جميعاً قوة يفك بها نطاق الشرك المضروب حول المدينة .. ويؤمن بها المدينة نفسها من الفتنة التى يثيرها اليهود بين الأوس والخزرج وبين المشركين والمسلمين عامة .. وليقيم دولة الإسلام على أسس من الحب والتضحية والإيثار .

نظر الرسول إلى المسلمين فى ظل الظروف التى كان يدركها جيداً ، وخاف على الأنصار أن تدب الفرقة بينهم وتسعى الفتنة إليهم وتطل فيهم أحقاد الماضى .. ويذر قرن الشيطان .. وأدرك أحوال المهاجرين وظروفهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية وخاف على نفوسهم أن يدمرها التفكير السيئ .. أو يدب إليها الوهن والقلق والاضطراب : أى أنه أدرك أن هذا وذاك فى حاجة إلى صياغة جديدة وإلى علاج بعد أن شخص المرض وعرف موطن الداء .

قصد الرسول إلى هذه اللبنات الهشة .. وذلك البناء المتداعى وتلك الخلايا المعرضة للأدواء والعلل .. وحاول أن يمحو مابها من قصور .. ويعدل مابها من اعوجاج .. وأن ينظف تلك الحبات الكريمة ليسلكها فى عقد عظيم .. وأن يهيئها لحياة ملؤها الألفة والطمأنينة والأمن والسلام .. وأساسها العقيدة المتوهجة المتألقة

فى النفوس .

وباختصار شديد .. اهتم الرسول بالإنسان باعتباره العامل الحاسم فى إحداث التغيير الذى يوده .. والشىء الأهم فى إيجاد التفاعل الديناميكى والميتافيزيقى مع طبيعة المجتمع المتغير فى ظل الظروف المتغيرة والمتجددة .

اهتم به من حيث قيمه وتقاليده ومثله ، فأحدث بها وبه تغييراً كان لابد أن يحدث .. ومن حيث سلوكه الاجتماعى فهدأ من سعار العصبية المرتفع وشرتها المتضخمة .. ودمدم عليها وأزالها .. وهدم قلاعها فى النفوس .. وحرثها .. ومهدها وزرعها بحدائق الخير والأمل والإشراق والعبير .. وسكب عليها من سكينة الروح وطمأنينة النفس وسمو الروح ما أبعد غلواءه وفخره وتعاظمه بالقبوريين من الآباء والأجداد .. وذكى فيه طبيعة الإيثار والتحاب .. وكانت المؤاخاة أساس كل ذلك .. وكان لابد منها كتشريع اجتماعى يكفل الحب والرحمة والتكافل والتعاطف والنبل والإيثار بين فئات المسلمين المختلفة الظروف نفسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا .. ولكى يصبح السلك الحامل للكهرباء موصلاً جيداً لابد أن يكون متجانساً مهيأ لحمل الشحنة والتلقى .

دعا الرسول الأنصار والمهاجرين إلى وليمة الحب .. وجعل للرجل من المهاجرين أخاً فى الله من الخزرج أو من الأوس ومازال يؤاخى بينهم فى الله بكل وسائل القربى .. بعيداً عن دواعى العصبية وقرابة الدم حتى شمل كل القبائل والبطون .. وأصبح لكل رجل من المهاجرين أخ من الأنصار .. كما أصبح لكل رجل من الأنصار أخٌ من المهاجرين فى تعانق ذكى وتصارح نبيل .. وارتفع الإسلام بهذه المؤاخاة فى الله والعقيدة إلى درجة أقوى من قرابة العصبية ومقام أسمى من أخوة الدم حين جعل الميراث للأخ فى العقيدة دون الأخ فى الدم .

أراد الرسول أن يزيل الوحشة الصامتة فى عواطف المهاجرين والمشاعر القلقة

من نفوسهم وأن يربت على جراحاتهم ونوازعهم من فقد الأخ والزوج والأب والابن والأهل والمال والمتاع والدار والعشيرة والأصحاب والأحباب .. وأن يعوضهم عن هذا الحرمان البشري بحب صاف نبيل فيه من ألق الروح وعناية السماء الرائعة .

ومن أراد أن يعمق أمر هذه المؤاخاة وموقعها فى ظروفها وزمانها فليبحث أمر الأسرة فى الجاهلية ومنزلة الفرد فيها .. وتماسكها وتآلفها .

وقد استطاع الرسول أن يزيل الحاجز النفسى الذى كان يفصل بين الأنصار والمهاجرين .. وأن يزيل الوحشة من نفوس القادمين من مكة .. وأن يجعل المهاجر لاينظر إلى تمزقه النفسى الذى يزلزل صميمه من جراء نزوعه الفطرى إلى مكة ومافيها ومن فيها .

كانت المؤاخاة ضرورية .. وبها أصبح المسلمون إخوة فى الله لايكاد الأنصارى يحس بالأثرة ولايكاد المهاجر يحس بالألم والامتعاض ، وقد كان الأنصار حقًّا على مستوى الحب والإيثار الذى وصفهم الله به ، وبذلك سلب الرسول سيطرة القبلية والعصبية .. وأحل محلها الحب فى الله والإيثار والأريحية .

وقد بلغت هذه المؤاخاة من نفوس الفريقين درجة كبيرة ، وبلغ تمكنها من عواطفهم ومشاعرهم درجة كبيرة .. حتى بعد أن قدم عليها العهد .. وتقدمت بها خطى الأيام .. فحمزة رضوان الله عليه كان هو وزيد بن حارثة أخوين .. وقد ترك حمزة وصيته لزيد عندما حضره الموت فى غزوة أحد . . وكان بلال وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين . . ولما دون عمر الدواوين وكان بلال قد خرج مجاهداً إلى الشام . . فأقام بها مجاهداً . فقال عمر لبلال :

إلى من تجعل ديوانك يابلال ؟

قال بلال :

أجعله مع أبي رويحة .. لا أفارقه أبداً للأخوة التي كان الرسول ﷺ عقدها بيني وبينه[1] .. وقد طالب زيد بن حارثة بحضانة ابنة حمزة لأن الرسول كان قد آخى بينه وبيني.

ولقد حرص الرسول كل الحرص على بقاء هذه المؤاخاة جليلة متينة فى النفوس .. فمنع إنشاد[2] الشعر الذى يحرض على الفتنة .. ولما حاول اليهود إثارتها تصدى لهم وقال : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم .. وحرص الصحابة كذلك على أن تبقى بعد الرسول فى مكانتها من النفوس : جاء أن ابن الزبعرى وضرار بن الخطاب أصرا على الذهاب إلى المدينة ومثول حسان بين يديهما يقولون شعراً فاستثاره بإنشادهما ماقالته قريش فى الأنصار حتى فار وغلى كالمرجل فتركاه وانصرفا .. وذهب حسان مغضباً إلى عمر فأخبره فاستردهما عمر ثم قال لحسان : أنشدهما ماشئت فأنشدهما حتى اشتفى[3] .

كان لابد أن تحدث هذه النقلة الاجتماعية لتهيئ المجتمع لإقامة الفرائض من صلاة وصوم وزكاة .. وأن يشيع فيه التراحم والتآخى والترابط .

وبدأ الرسول فى توجيه المهاجرين إلى الجهاد والغزو .. وتدريبهم عمليًّا للقاء العدو .. وحفزهم لاستخلاص حقهم من عدوهم وشغلهم عما عساهم فيه يفكرون .. فوجه بعد ستة أشهر أو زهائها أول سرية أو غزوة .. وبدأت الغزوات والسرايا حتى بلغت قبل غزوة بدر وبعد مضى ثمانية عشر شهراً أو أقل ثمانياً مابين غزوة أو سرية.

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٠٩ - ١١٠.

(٢) الدرارى المضيئة جـ ١ ص ٩٣ للشوكانى ط ١ سنة ١٣٤٧هـ وزاد المعاد جـ ٢ ص ١٥٣.

(٣) فى الأدب الجاهلى ص ١٢١-١٢٢- المعارف سنة ١٩٦٤ والأغانى جـ ٤ ص ٥ بولاق.

المعاهدة بين الرسول وبين اليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً)

الآية ٢٩ من سورة الفتح

كان اليهود يقيمون مع المسلمين فى المدينة كما سبق أن ذكرنا ، وبعد أن استقر الرسول فيها كان المسلمون يمثلون الأغلبية .. وقد رأى الرسول أنه لكى يقيم دولة لابد له من الشعب والأرض .. فالأرض موجودة وعليها أصحاب ملة أخرى ..

وهم يظهرون له وداً ويضمرون شراً .. فرأى الرسول بثاقب فكره أن يقيم بينه وبينهم معاهدة – وبرغم أنه يعرف نواباهم وشرورهم – رأى أن المصلحة تقتضى أن يقيم هذا الصلح ، لأن الجولة مع قريش وشيكة الوقوع .. وهو لا يريد أن يفتح جبهتين أو يكشف ظهر المسلمين . أو يجعله موطن مخافة ، ويريد الرسول أيضاً أن يكون من هذا المجموع البشرى كله اليهود والمسلمين ومن معهم شعباً يصلح نواة الدولة .

وكما أقام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصد إلى أن يوجد علاقة بين المسلمين وبين اليهود على أساس من الاحترام المتبادل ، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم .. وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط وقد بادر حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام فدخل فى الإسلام وأبى عامتهم إلا الكفر . . وكانوا قبائل ثلاثاً (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة)

ومما جاء فى تلك المعاهدة[1] :

بسم الله الرحمن : هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .. إنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاملون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) .. بالمعروف والقسط بين المؤمنين والأنصار (بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وبنو جشم وبنو النجار وبنو عمرو بن عوف وبنو النبيت وبنو الأوس كل قبيلة منهم على ربعتهم يتعاملون ويفدون عانيهم) وإن المؤمنين لا يتركون مفرجا (مثقلا بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .. وألا يحالف مؤمن

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٦ – ١٠٨ .

مولى مؤمن دونه .. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم .. وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولامتناصرين عليهم .. وأنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على المؤمنين .. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ .. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وإن يهود (بنو عوف) أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وجفنة وبنى الشبيطة ماليهود بنى عوف .. وإن البر دون الإثم .. وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإن على نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة .. وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأن النصر للمظلوم .. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .. وإن الجار كالنفس غير مضار وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وأن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب .

ويتضح لنا من تلك المعاهدة أن الرسول أكد جملة من المبادئ الهامة :

١ — أن قوة المسلمين أصبحت قوة فعالة لها تأثيرها وزاد من هذه القوة اعتراف اليهود بها وبنبيها .

٢ — أصبحت المدينة مدينة مفتوحة لكل من أسلم ؛ لأن هذه المعاهدة جعلتها موطناً للمسلمين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم .

٣ — زادت هذه المعاهدة من تضامن المسلمين وتناصرهم وقد نص فيها على أن ماكان من خلاف وشجار فإن المرجع فيه إلى الله والرسول ، وجعلت كل طائفة من

المسلمين تتعامل فيما بينهم تفدى عانيها .. ولكن المؤمنين جميعاً لايتركون مثقلاً بالديون أو كثير العيال إلا أعطوه بالمعروف .

٤ - كفلت المعاهدة حرية العقيدة للمسلمين دينهم ولليهود دينهم ومواليهم كأنفسهم وقد ضمن اليهود بذلك حرمة دينهم وعدم اعتداء المشركين عليهم .

٥ - ترك الرسول الباب مفتوحاً لكل راغب من اليهود فى الإسلام على أساس النصرة والأسوة .

٦ - تعهد اليهود بألا يجيروا مالاً ولا نفسا لقريش .. ولا يحولوا على المؤمنين دونها .. ويكون الرسول بذلك قد بدأ يضع قريشاً فى حصار ويقطع عليها الطرق .

٧ - بهذه الصحيفة انقادت إلى النبى السلطة الزمنية فى يثرب دون قصد .. فقد نصت المعاهدة على أن الرسول هو الحكم الذى يرجع إليه فى حالة الخلاف وقد كرر الرسول هذا الشرط مرتين ومنذ تلك الساعة وضع الرسول الحجر الأساسى لدولة الإسلام .

٨ - كما جعلت منه حاكماً يستأذنه من يريد الخروج والدخول من اليهود والمرجع عند كل خلاف .

٩ - اشترطت المعاهدة تضامن اليهود والمسلمين فى تحمل نفقات الحرب وصد العدوان الخارجى .. وقد أكد الرسول ذلك مرتين .

١٠ - جعلت هذه المعاهدة يثرب مدينة آمنة لأول مرة فى تاريخها .. وبهذه التدابير ظهرت يثرب وطناً لأهلها لامسكناً لأقوام متنازعين فيها .. وطناً آمناً للمسلمين واليهود والمشركين على السواء وللنازحين إليها من أية قبيلة ومن أى عنصر[١] .

---

(١) بطل الأبطال ٧٨ ، ٧٩ .

١١ – زاد هذا الصلح من عزة الإسلام وأهله .. وقد جعل بعض الفقهاء هذا الصلح فتحاً إسلامياً للمدينة واعترافاً من كل الطوائف بسيادة الإسلام .. وإنما لم تفرض الجزية على اليهود لسببين يذكر ابن القيم[1] أنه لم تكن قد فرضت الجزية بعد ، ويرى آخرون أنه لم تفرض عليهم الجزية ؛ لأن اليهود قبلوا أن يتحملوا نفقات الحرب مع المسلمين .

الأهداف والنتائج :

ونظرة إلى ماسبق مما استخلصناه من شروط المصالحة يتضح لنا أن المعاهدة لم تكن صلحاً بين المسلمين وبين من عداهم من اليهود بقدر ماكانت دستوراً عاماً لكل سكان المدينة ، فهم مواطنون أمام القانون سواء متكافئون فى الحقوق والواجبات .. متضامنون لحمايتها باذلون لها النفس والمال مكلفون بالدفاع عنها ضد التدخل الأجنبى والغزو الخارجى مع كفالة الحرية الدينية فيها لكل مواطن وحرية المال والدم والعرض والجوار .

وظهر لأول مرة معنى الوطن الذى يتساوى فيه المواطنون جميعاً فى ظل نظام يعطى حقوقا ويلزم واجبات .. وكل حق نظيره واجب من غير نظر إلى لون أو جنس أو فوارق الحسب والنسب والعصبيات .

قضى هذا الدستور على الإباحية والفوضى وسيطرة القوة ، وقرر حق الأمة وجعله فوق حق القبيلة وأرجع حق إقامة الحدود إلى الله ورسوله : أى إلى الشريعة .. والرسول منفذ الشريعة .. بعد أن كانت تتولاها القبيلة والعصبية التى لاتفرق بين جان ومجنى عليه وبين مذنب وبرىء.

ونرى بعد ذلك كله أن الرسول قد أوجد معطيات حضارية وبذر للحضارة

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٤ .

بذورها ورعاها وتعهدها وصانها من وصاية القبائل والعصبيات والتكتلات الضاغطة فى أشد الأقوام ميلاً إلى الفوضى والهمجية

وكانت المعاهدة إلى جانب ذلك ذات معنى كبير.. إذ إن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان يدرك أن لحظة الصدام مع قريش وشيكة الوقوع كما قررنا سابقاً .. ولم يشأ أن يبدد جهد المسلمين وطاقتهم .. ويشغل بالهم فى جبهتين .. فأقام المعاهدة وهو يعلم جيداً ويدرك جيداً أن اليهود ليس لهم عهد ولا ميثاق ولا ذمة ولا شرف .. فكان جلاؤهم كتاباً مؤجلاً والصدام معهم نظرة إلى فرصة قابلة .

تحويل القبلة :

كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس وظلوا يتجهون إليه حتى شهر شعبان من السنة الثانية من قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة .

وكان الرسول يحب أن ينصرف إلى الكعبة .. وقال لجبريل : وددت أن يصرف الله وجهى عن قبلة اليهود.. فقال له جبريل : إنما أنا عبد فادع ربك واسأله .. فجعل يقلب وجهه فى السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله سبحانه وتعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام)[1] وكان الرسول لايرضى أن يتجه إلى قبلة يتجه إليها اليهود .

وبعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة قبل وقعة (بدر) - بشهرين تقريبا جاءه الأمر بالاتجاه إلى الكعبة فى الصلاة . والذى لاشك فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتحرق شوقاً لأن يتجه إلى الكعبة .. وقد زاد من شوقه بُعده عن مكة بعد هجرته الشريفة وذكى شوقَه ما يعاوده من نزوع فطرى إليها وإلى الكعبة المشرفة بعد وداعها الوداع المشوق وهو مهاجر عنها .

---

(١) الآية ١٤٤ - البقرة .

ولقد كان بعض الصحابة من مسلمى الأنصار يتجه إلى الكعبة ويأبى ألا يدع الكعبة خلف ظهره وألا يصلى لها .. وكان فى سفر مع أصحابه إلى مكة فكانوا يصلون إلى بيت المقدس .. ويتجه هو إلى الكعبة ، ولما وصلوا مكة ذهب هذا الصحابى وكان هو البراء بن معرور ومعه كعب بن ماللك إلى رسول الله ﷺ فقال البراء : يانبى الله إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام فرأيت ألا أجعل هذه البَنِيَّة منى بظهر فصليت إليها وقد خالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء فماذا ترى يارسول الله ؟ قال الرسول له : كنت على قبلة لو صبرت عليها . . فرجع البراء إلى قبلة الرسول ﷺ وصلى إلى الشام . . وقد زعمَ أهله أنه صلى إلى الكعبة حتى مات .. يقول عون بن أيوب الأنصارى مشيراً إلى البراء :

ومنا المصلى أول الناس مقبلاً على كعبة الرحمن بين المشاعر[1]

وكان تحويل القبلة محنة واختباراً للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .. فأما المسلمون فقالوا : سمعنا وأطعنا .. وقالوا آمنا به كلٌّ من عند ربنا .

وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا .. وما رجع إليها إلا أنها الحق .

وأما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبيًّا لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء .

وأما المنافقون فقالوا : ماندرى محمدًا أين يتجه ؟ إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها .. وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل .

وكثرت أقاويل السفهاء (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ..)[2]

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٢ – ٦٣ .

(٢) البقرة/١٤٢ .

وكانت القبلة كما قال الله : (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله)[1]

وأكد الله أمر التوجه إلى الكعبة أكثر من ثلاث مرات ، وأمر به حيثما كان رسول الله ﷺ ومن حيث خرج .. وأخبر أن الذى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم هداهم إلى هذه القبلة ، وأنها هي القبلة التى تليق بهم وهم أهلها ؛ لأنها أوسط القبل وأفضلها وهم أوسط الأمم وخيارهم ، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب .

الأذان :

وأتم الله نعمته على المسلمين مع القبلة بأن شرع لهم الأذان فى اليوم والليلة خمس مرات ، وزادهم فى الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية ، فكل هذا بعد مقدمه المدينة[2] بعد أن اطمأن بها واجتمع له أمر الأنصار ولم يبق بالمدينة غير القليلين من اليهود والمشركين وأصبح المسلمون أغلبية .. استحكم أمر الإسلام فشرع الرسول يقيم المجتمع المسلم الذى يتحقق بإظهار الشعائر دون تخويف أو أعداء ، فقامت الصلاة ، وبنيت المساجد ، وفرضت الزكاة تقوية للمجتمع وتثبيتاً لأركانه ، وقامت الحدود لصيانته ودعمه ، وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام مكانته بين أظهرهم كما تبوأها فى صدورهم ونفوسهم .

وكان المسلمون يجتمعون ، فيتحينون الصلاة وليس ينادي بها أحد فتكلموا يوماً فى ذلك فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم بل قرناً[3] مثل قرن اليهود .. فقال عمر : أولا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ فقال

---

(١) البقرة/١٤٣ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٧ – ٥٨ .   (٣) البوق .

رسول الله ﷺ : يابلال قم فناد بالصلاة [1]

وعن عبد الله بن زيد فى رواية أخرى : «لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس ليضرب به الناس فى الجمع للصلاة ، وفى رواية أخرى (وهو كاره لموافقته النصارى) طاف بى وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوساً فى يده فقلت له :

ياعبد الله أتبيع الناقوس ؟

قال : ماذا تصنع به ؟

قال فقلت : ندعو به إلى الصلاة

قال : أفلا أدلك على ماهو خير من ذلك ؟

قال فقلت له : بلى.

قال : تقول : الله أكبر.. وأملى عليه صيغة الأذان الحالية .

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال : إنها لرؤية حق إن شاء الله . . فقم مع بلال فألق عليه مارأيت فليؤذن به .. فإنه أندى صوت منك .. قال : فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به .. فسمع بذلك عمر وهو فى بيته فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى .. فقال النبى ﷺ : فلله الحمد .

والأذان إلى جانب مايعنى من الإعلام بحلول وقت الصلاة يعنى الإعلام بالعقيدة بصورة أسمع والإعلان عن وجود المسلمين السياسى ، فلا يعقل أن يؤذن للصلاة فى بلد غير إسلامى ، ولايمكن أن يحدث .

ومن هنا كان الأذان إشعاراً بالوجود الإسلامى وثباته ونموه ويعنى تحولاً أساسيًّا وجوهريًّا فى حياة هذه الأمة وهذه الدولة الإسلامية.

ونلاحظ أنه كما كان الرسول غير راض هو وبعض الصحابة عن توجههم إلى

---

(١) رواه البخارى وأحمد.

بيت المقدس كان أيضاً كارهاً لأن يتخذ البوق أو الناقوس شعاراً وإعلاماً بحلول وقت الصلاة .. وهذا يعنى أن الرسول يكره لأمته ولدولته فكرة التقليد والتبعية .. وينشد لها الفكرة الاستقلالية فى الشخصية والذات بعيداً عن بصمات اليهودية والنصرانية أو طريقهما فى الإعلام بالصلاة .

وقد سبق أن قلنا : إن الأذان كان يمثل النشيد القومى فى الدولة الإسلامية .. والرسول يود أن يفرد لها نشيداً خالداً يرتبط بمقوماتها ويدعو إلى تمجيد العقيدة والعزة والدعوة إلى الخير والفلاح ، فلم يكن الأذان مجرد دعوة إلى الصلاة .. وهذا وحده كاف فى إثبات استقلال الشخصية السياسية للدولة .. ولكنه إلى جانب ذلك كان يمثل النشيد القومى .. وهو يشكل ملمحاً من ملامح الدولة .

اللـواء :

اللواء للدولة شخصيتها المعنوية وهويتها التى تعرف بها بين الدول .. ولذلك تحرص كل دولة حصلت على استقلالها أن تختار علمها ونشيدها القومى تأكيداً لملامحها وإبرازاً لشخصيتها الدولية .. وقد جعل الرسول عليه الصلاة والسلام للمسلمين لواء أبيض كما كانت هناك رايتان سوداوان أمام الرسول فى الحرب .

وقد اختلف المؤرخون وكتاب السيرة حول اسم أول من حمل لواء للمسلمين : فابن هشام مثلاً يرى أنه عبيدة بن الحارث . . وغيره يرى أنه حمزة بن عبد المطلب . . وهو الصحيح .

ولايعنينا الآن تحرير الخلاف .. وسنذكره فى موضعه إن شاء الله من هذا البحث ..

والأذان واللواء يمثلان فى الأعراف الدولية والدبلوماسية والسياسية اعترافا بالوجود السياسى والحقوق السياسية فى الوقت نفسه والتعامل المتكافئ . . ولذلك

يعزف النشيد القومى ويرفع اللواء فى زيارة رؤساء الدول أو الوزراء وغيرهم عند زيارتهم لدول أخرى .

وقد صدح بالأذان بلال .. وزلزل صداحه المدينة كلها .. وكبت شعور الحاقدين .. وهذا قمة الاعتراف بالوجود الإسلامى من سكان المدينة أجمعين .

الإذن بالقتال والجهاد :

الإذن بالقتال سبق فرضيته .. ولكن هل الإذن بالقتال نزل فى مكة أو نزل الإذن به بعد استقرار الرسول بالمدينة وتأييد الله بنصره وبعباده المؤمنين ؟

يرى ابن هشام[1] أن آية الإذن بالقتال مكية وأن الإذن بالقتال جاء بعد بيعة العقبة الثانية .. وكان الرسول قبل هذه البيعة يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل .. فلما عتت قريش عن أمر ربها أذن الله عز وجل لرسوله فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم فكانت أول آية نزلت فى إذنه له تعالى بالحرب وإحلاله الدماء والقتال فنزل قوله : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله﴾ [2] .

ويرى هذا الرأى كثير من العلماء والمؤرخين والدارسين منهم المرحوم محمد الخضرى الذى يرى أن أكثر القرآن نزل فى مكة وأهم ماتناوله فى العهد المكى مايلى :

١ – التوحيد ورفض الأوثان والأصنام .

٢ – الإيمان بالبعث واليوم الآخر والحساب .

٣ – بين القرآن الخصال التى تقرب الإنسان من الله.

---

(١) السيرة جـ ٢ ص ٧٩ .

(٢) الحج/٣٩ ، ٤٠ .

٤ – بيان العبادات العملية التى تربطهم بالله وتوجههم إلى الخير.

٥ – مما شرع فى آخر أيام الرسول بمكة الإذن له بالقتال[1].

ويرى ابن القيم أنه لما استقر رسول الله بالمدينة ، وأيده الله بنصره وبعباده والمؤمنين ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم فمنعته الأنصار وبذلوا نفوسهم دونه . وكان أولى بهم من أنفسهم – رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساعد العداوة وصاحوا بهم من كل جانب .. والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ بالقتال ، ولم يفرضه عليهم فنزلت الآية التى فيها إذن بالقتال .

وردّ على من قال إن هذا الإذن كان بمكة وإن السورة مكية بوجوه : منها أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال ولا كان لهم شوكة وأن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم وأن قوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) الحج/ ١٩ نزلت فى الذين تبارزوا فى يوم بدر : أى وهى فى السورة المكية ومنها أن الله خاطبهم فى آخرها بقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)[2] . والخطاب على هذا الأسلوب مدنى .. فأما الخطاب (يأيها الناس) فمشترك ..

ومنها أنه قد يكون أمرهم فى هذه الآية بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد وغيره ..

ومنها ما روى عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليَهْلكُنَّ فأنزل الله عز وجل : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..) وإن سياق السورة يدل على أن منها المكى والمدنى .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ٨٦ – ٩٣ ط ٨ – التجارية – مصر .

(٢) الحج/ ٧٧ .

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا)[1]

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة . وكان محرما ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال .. ثم مأموراً به لجميع المشركين[2] (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[3].

والترتيب الزمنى أن ينزل الإذن بالقتال أو فرضيته بعد أن يشتد أزر المسلمين ويقوى ساعدهم وأن يجىء الأمر بالقتال دفاعاً عن كيان يعرف قوته وحسن استعداده .. كيان يدافع عن وجوده ولم يكن للمسلمين قوة ولا وجود مستقل يصح الدفاع عنه .. ولقد أمر الرسول أصحابه بعد بيعة العقبة (الثانية) بالهجرة .. فأين يقع الإذن بالقتال ؟ ولهذا نرى أننا مع ابن القيم فى رأيه .. ويمكن توجيه الإذن بالجهاد قبل المدينة إلى أن يكون إذناً بأى نوع من أنواع الجهاد .

كان لابد من الإذن بالقتال وفرضيته الجهاد لصيانة الدولة والذود عن حياضها والدفاع عن الوجود المسلم ؛ لأن الدولة دون الإعداد لحمايتها لاتعيش ولاتصمد ولايكتب لها البقاء .

ولقد كان الرسول يدرك جيداً أن لحظة الصدام مع قريش وشيكة الوقوع .. وكان أبعد الناس نظراً وأرجحهم عقلاً .. فمنذ أن وصل أخذ فى إعداد العدة لحماية الدعوة من قوم لايحترمون غير القوة .. ولم يفلح فيهم النصح ثلاثة عشر عاماً أو زهاءها[4] .

---

(١) الآية ١٩٠ البقرة .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٨ .

(٣) الآية ٣٦ التوبة .

(٤) بطل الأبطال ص ٧٥ .

فبدأ الرسول فى إعداد أصحابه وتدريبهم على وسائل الدفاع عن النفس والمهارات الفردية كالمصارعة والرماية والمسابقات وركوب الخيل .. فأحسن ابتكارها وهيأهم وأعدهم لحمل السلاح .. وبدأ يتهيأ ويعدهم للعمل الحاسم الذى يرد به قريشاً إلى صوابها بإصابتها فى أعز ماتعتمد عليه حياتها وهو تجارتها .. ويكسر نطاق الحصار الذى ضربه الشرك حول المدينة ليؤمن المدينة ذاتها من الفتن والقلاقل والاضطرابات .

تلك أغراض ثلاثة لابد لإدراكها من القوة .. وخلق هذه القوة وتنظيمها وتدريبها والاستعانة بها على أسمى المقاصد عمل امتاز به محمد ﷺ على من سبقه من الرسل .. وذلك الدور فى تدريب المهاجرين والأنصار والخروج بهم على الناس جميعاً قوة ضاربة — من أدق ماامتحن به محمد مصلحاً ورجل دولة ، وفيه تجلى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى مالايضاهيه إلا أخلاقه الفاضلة .

لم يضيع الرسول فرصة واحدة ولا لحظة واحدة منذ قدم المدينة ولم تغفل عينه طرفة عين .. وكان يعمل بكل ماأوتى من قوة .. وكأنه فى صراع مع الزمن .. فلم يستقر به المقام فى المدينة حتى بدأ تدريبه للمهاجرين والأنصار .. ليصوغهم صياغة خلقية ودينية وعسكرية جديدة أساسها النظام واحتقار الموت .. فكانوا رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار .

وبدأ يعتمد على المهاجرين أولاً فى توجيه بعض الغزوات والسرايا[1] ، فبعد وصوله بسبعة أشهر فقط عقد أول راية فى الإسلام لحمزة أو لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .. وفى أقل من عام ونصف العام بلغت سراياه وغزواته ثمانياً .. كان هدفها أولاً إحياء آمال المهاجرين فى الظفر بممتلكاتهم ورفع روحهم المعنوية وإبعاد

---

(١) الغزوة ماخرج الرسول فيها بنفسه سواء قاتل أم لا والسرية ماوجه فيها جيشا بقيادة بعض الصحابة .

شبح القنوط الذى كان قد بدأ يساورهم ويخيم عليهم .. والتدريب العملى الدائم والإعداد المشترك لخطط الحرب .. وإعلام أهل المدينة ومن حولها من الأعراب الطامعين فيها أن الرسول جاد فى مقاومته القوة بالقوة .. وأن الرجل الذى يتعرض لقريش ليس بالرجل الذى ينال منه أو يظفر به أو يستباح حماه .

وعلمت قريش أن محمداً والمستضعفين معه من الذين أخرجتهم قريش بالأمس أصبحوا خطراً داهماً على ثرواتها وكيانها الاقتصادى وهو أعز ماتملك . بقدرما أصبحوا خطراً على كيانها الدينى وسيطرتها وزعامتها للعرب .

كانت الغزوات والسرايا بيانات عملية .. وتدريبات بالذخيرة الحية التى أحسن المسلمون استخدامها والعمل عليها فى عام ونصف العام وهو زمن قياسى فى قوة وليدة .

ولما أنس الرسول فيهم القوة والمهارة وحسن الاستعداد ووثق بهم وفى قدرتهم وإيمانهم وصبرهم وبلائهم وكفاءتهم القتالية .. لم يتردد فى معركة حاسمة .

وقد علم الرسول بعير قريش التى ضمت أموالاً كثيرة .. لم يخل من الاشتراك فيها بيت فى مكة ، فأراد أن يضرب اقتصاد مكة ويهدم كيانها .. فتعرض للقافلة ، ولكن أبا سفيان نجح فى الهرب بها .

وبرغم تحذيرات أبى سفيان وحكيم بن حزام والأخنس بن شريك لقريش بعدم التعرض لمحمد وصحبه فإن الزعماء القرشيين نادتهم مصارعهم ، فأبوا إلا ورود ماء بدر والتحرش بالمسلمين وإغاظتهم وعزف القيان وشرب الخمور .

وانتصرت القلة المسلمة فى بدر ، ثم كانت أُحُد وانتصر القرشيون فى جولتها .. ثم كانت غزوة الأحزاب التى ابتلى فيها المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا ؛ لأن اليهود نقضوا عهد الرسول ، وجاء العدو من فوقها ومن أسفلها .. ولكن الرسول أتم بالرأى والحيلة مابدأه بالشجاعة والصبر فانصرف الأحزاب .

كانت غزوة الأحزاب قمة الصراع بين المسلمين والمشركين .. وروى أن الرسول ﷺ بعد أن انهزم المشركون يوم الأحزاب قال :

«إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم وتسمعون منهم أذى ويهجونكم »[1] ثم صالح قريشاً فى الحديبية على أن تضع الحرب أوزارها بينه وبينهم عشر سنوات .. ولكنهم نقضوا العهد بتعدى بكر على خزاعة بالقتال .. فكان فتح مكة وإزالة معاقل الشرك .. ثم استقر فى حنين وطهر ماحول مكة أيضاً .. وأما اليهود فقد حاربت بنو قينقاع بعد غزوة بدر .. فقد ساءهم نصر المسلمين وملأ الحقد نفوسهم فسار إليهم بعد بدر بأقل من شهر فمن عليهم وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات بالشام وطهر المدينة منهم .

وأما بنو النضير فقد نقضوا العهد بعد بدر بستة أشهر فأجلاهم أيضاً .

وأما بنو قريظة فكانوا أشد عداوة ، وقد انتهزوا فرصة غزوة الأحزاب ، فنقضوا عهدهم مع الرسول وسبّوه .. فظفر بهم فقتل بنى قريظة وسبى ذراريهم .. ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير .. وسورة الأحزاب فى بنى قريظة .. وصالح أهل خيبر على إجلائهم منها ولهم ماحملت ركابهم .. ثم طُرِد اليهود بعد ذلك من الجزيرة كلها .

وامتد نور الله بعد ذلك ؛ ليمحو ضلال الشرك والوثنية فى فارس وفساد المسيحية المتهالكة فى الروم .

كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة سلسلة متصلة الحلقات من الأعمال والجهاد والإعداد ووضع الخطط والتشريعات والنظم ورسم سياسة الأمة الناشئة .. لم يهدأ ولم يغفل .. ولم يكل ولم يدع الظروف تغلبه .. حتى ثبتت أركان الدولة وأخضع لنورها القاهر رقاب الشرك وجحافل الوثنية واعترف به عتاة

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٢٣٣ – دار الكتب .

قريش .. وسادة الجزيرة .. وبدأت فتوح الإسلام تتجه إلى خارجها .

كانت الهجرة بداية إرساء الدولة والعامل الحاسم الأهم فى نشأتها وقوتها وازدهارها وانتصارها .. ولقد وضع الرسول فى اعتباره قبل الهجرة هذا كله .. فعمل له.. ولم يضيع لحظة واحدة ولا فرصة واحدة .

عمل ماوسعه العمل ، وجاهد ماوسعه الجهاد حتى أقام دولته التى التهمت فى أحشائها فى زمن قياسى أكبر دولتين فى العالم آن ذاك وصارت الإمبراطورية الإسلامية .

الرسول بين العهدين المكى والمدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعَفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) .
سورة الأنفال/ ٢٦

ذكرنا أن الهجرة كانت نهاية لمرحلة من الضعف والتحسب .. وبداية لمرحلة من الحماية والدفاع والقوة والتصدى والقتال .. وذكرنا أن الرسول ﷺ كان مقدمه للمدينة بداية لوضع اللبنات الأولى للدولة الإسلامية .. وبناء المجتمع المسلم الذى يقوم بشعائره الدينية فى حرية تامة .. إلى غير ذلك .

وتميزاً للمرحلة الزمنية فى المدينة عنها فى مكة جعل بعض كتاب الغرب يحاول أن يصور الرسول فى شخصيتين (مكى – مدنى) ويقول : إن محمداً فى مكة كان

نبيًّا .. أما فى المدينة فكان رجل دولة وصاحب سلطان .. وهذا وهم دفعهم إليه تصورهم المريض لطبيعة المرحلتين وتميزهما .. فقد نظروا إلى الرسول فى مكة واعظاً يعظ .. وداعية يدعو ومرشداً يرشد ويهدى .. وما رأوه بالصورة نفسها فى المدينة يعبد الله حتى تتورم قدماه .. شخصية واحدة كانت تدعو لتهيئ النفوس للخير وتهديها سواء السبيل .. ثم لاتنسى أن تفنى نفسها فى هذا الضوء .. فما اختلفت الشخصية فى مرحلتيها .

محمد الذى رأوه فى مكة يعرض نفسه على القبائل ، ويلقى الإهانات ، ويشيعه العبيد والصبية والسوقة من (الطائف) بالسخرية والحجارة ، ويقيمونه إذا جلس من الإعياء .. فيدعو الله لهم بالهداية والغفران والعفو هو نفسه محمد الذى منّ على رءوس قريش بالعتق يوم فتح مكة وهو الذى ناول عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة .

ومالاحظوا أن أيام المحنة فى مكة كانت هى التى وضعت نواة الدولة .. وماعلموا أن الصراع الذى ساد طبيعة المرحلة فى مكة ثلاثة عشر عاماً أو زهاءها[1] كانت نتيجة وضع المخططات للدولة ، وماكانت الدولة والدعوة الإسلامية ببالغتين رشدهما ونضجهما فى المدينة إلا على يد الطلائع الراشدة من الأنصار التى اهتدت وأقبلت على الدعوة فى مكة أيام المحنة والصراع .

تميز المرحلة بعد الهجرة بما فى هذا التميز من ملامح أملتها طبيعة المرحلة من كثرة التشريع والتنظيم وتصريف شئون الحياة .. ماهو إلا برهان قاطع وحجة دامغة على حيوية الرسول وتفوق شخصيته .. ومعايشته الصادقة الواعية للظروف التى تعترضه والمشاكل التى تتصدى له .

---

(١) يرى الخضرى فى تاريخ الأمم الإسلامية أن الرسول مكث فى مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء جـ ١ ص ٨٥ طبعة ٨ .

وقد أملت عليه طبيعة المرحلة فى المدينة .. أن يعد العدة لحماية الدعوة من قوم لايحترمون غير القوة .. ولقد كان أمله وهمّه أن يبلغ دعوته وينشر دينه .. ويبسط على الشرك سيادة الدين.ولقد اقتضت ظروف كل مرحلة أن يكون الرسول متأهباً لها برجاحة العقل وبعد النظر وحسن الاستعداد .

ردود وحدود :

ويرى الدكتور طه حسين أنه «منذ هاجر النبي إلى المدينة تكونت للإسلام وحدة سياسية لها قوتها المادية وبأسها الشديد ، وأحست قريش أن الأمر قد تجاوز الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة إلى شيء آخر كان فيما يظهر أعظم خطراً فى نفوس قريش من الدين ومايتصل به .. وهو السيادة السياسية فى الحجاز .. والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التى كانت ترحل إليها بتجارتها فى الشتاء والصيف وأنت تعلم أن محاولة الاستيلاء على العير هو أصل الوقعة الكبرى الأولى بين النبي وقريش فى (بدر) فليس من شك إذن فى أن الجهاد بين النبي وقريش قد كان دينيًّا خالصاً ما أقام النبي فى مكة .. فلما انتقل إلى المدينة أصبح هذا الجهاد دينيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وأصبح موضوع النزاع بين قريش والمسلمين ليس مقصورا على أن الإسلام حق أو غير حق .. بل هو يتناول مع ذلك الأمة العربية أو الحجازية على أقل تقدير .. لمن تذعن ؟ والطرق التجارية لمن تخضع ؟ »

ومعنى هذا كما يقول الدكتور أن الهجرة قد وضعت مسألة الخلاف بين النبي وقريش وضعاً جديداً .. جعلت الخلاف سياسيًّا يعتمد فى حله على القوة والسيف بعد أن كان دينيًّا يعتمد على الجدال والنضال بالحجة ليس غير[1] .

فقد تبنى الدكتور طه حسين فى هاتين الفقرتين عن قريش تصوير آراء قريش

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١١٧ — ١١٨ دار المعارف سنة ١٩٦٤.

وعرضها عرضاً ربما كان يدور فى فكرها وربما ماكان يدور لها ببال .

وقد نوافقه عليه أو لا نوافقه .

ولكن الذى لانوافقه عليه ماذكره ممايتصل بالجهاد .. فهو يشتم منه رائحة الغمز والطعن على الجهاد ووضعه فى سياق الدعوة .. وتاريخ الإسلام .. إذ معناه أن الرسول كان همه الأول من الحرب الاستيلاء والسيادة .. وبهجة السلطان ورواق العز وعظمته . . وهذا مالم يخطر للرسول على بال .. وماكان ليخطر له .. وأظن ويظن الدكتور طه حسين معى هذا .. وهو ترديد مقنع لما زعمه أساتذته من المشرقين .

فالسيادة السياسية فى الحجاز لم تكن لتدخل فى مقصد الرسول الأسمى من الجهاد .. إلا من أجل بسط السيادة الدينية والسيادة عنده لاتتجلى فى مظهرية السلطان وعظمته .. وإنما تتجلى فى صورتها السامية فى إتمام نور الله وعدم إطفائه وفى سيادة الحق وبسط كلمته ورفعها لواءه واعتناقها مبادئا

. والسيادة على الطرق التجارية لم تدخل فى حساب الرسول ﷺ .. وماكان لها أن تدخل فى حسابه .. أو يدخلها هو فى حسابه .. بل لاتعتبر هدفاً أساسيًّا للدعوة الإسلامية بقدر ماكانت إصابة عير قريش هى الهدف .. وبقدر ماكان ضرب النظام الاقتصادى لقريش بعد مافعلت بالمهاجرين وأموالهم ومتاعهم ودورهم مافعلت .. أى بعد ماصادرت ممتلكاتهم .. وأوصلتهم إلى ماهم فيه من فقر وضنك وبعد أن ضربت حول الإسلام والمسلمين فى المدينة الحصار الاقتصادى .

وهل يتصور أن يتمتع مغتصب المال به ويسرف فيه أمام صاحبه وصاحبته برم ضائق فقير ، ثم لايتحرك .. ولايتحفز ولا يحاول استرداده ؟

لعل الدكتور (طه حسين) كان يتصور ذلك .. وخصوصاً أنه يدافع عن قريش أو يتبنى وجهة نظرها .. ولاسيا أنه لم ينوه بالسبب الأصيل فى التعرض للغير

من قريب أو من بعيد .. وهو مصادرة قريش لأموال المسلمين المهاجرين واستيلاؤها عليها ..

أما الجهاد فقد فرضت عليه الظروف مرحلة .. وأقام لنفسه مرحلة ، أما المرحلة التى أقامها فكانت فى قريش .. وكان جهاداً بالحجة كما قال الدكتور (طه حسين) .. جهاداً بالقرآن كما أمره الله (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) [1] أى بالقرآن .

والجهاد منه جهادٌ بالقلب .. وجهادٌ باللسان وجهادٌ بالمال وجهادٌ باليد وبالنفس وهو آخرها .

وقد كان الجهاد المأمور به فى مكة جهاد الحجة وجهاد التبليغ ولكن قريشاً آذت الرسول وصحبه وأخرجتهم .

فهل يستمر الجهاد بالحجة ؟ وهل تكفى الكلمة مع غوغائية قريش ؟ وهل إذا وقف الرسول عند الجهاد بالكلمة – لاقدر الله – كان سيكتب للإسلام البقاء والنمو ؟ وهل سيقال إن الرسول لن ينتصر للكلمة ، ولم يدافع عنها ولم يرم عن قوس الحق .. ولم يحمها من لؤم أوكيد المرضى بالحقد والأنانية والسيف والقوة ؟ وهل تستطيع الكلمة الفاهمة أن تنفذ إلى قلوب وأسماع من أصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم .. وكادوا للحق وتعصبوا عليه .. وناصبوه العداء ورموا داعيه بالأذى والكيد والحقد والتربص .. ونصبوا لكل من أسلم فخاخ الذل والهوان ؟

كان لابد من أن تتغير الوسيلة .. ويتغير أسلوب الجهاد بعد أن تعددت أسبابه من الناحية الدينية إلى الناحية الاقتصادية باستيلائهم على أموال المهاجرين وتبديدها وحصار الإسلام فى المدينة ، ومن الناحية السياسية بعد وجود قوة ضاربة تحمى الإسلام وكلمته وترفع رايته . . وتدافع عن أهله .

---

(١) سورة الفرقان/ ٥٢.

«كان الرسول فى المدينة[1] على مفترق طريقين .. طريق يريده له بعض كتاب الملل الأخرى وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ويعجزون كل العجز إذا اعترضتهم عقبات الحياة وسخافات البشر وسنن الوجود .. وطريق آخر هو الذى سلكه .. لأن الله أرشده وأعده ليكون المثل الكامل فى القول والفعل» .

أما الأول فهو الطريق السلبى .. وأما الآخر فهو الطريق العامل .. فى الأول كان عليه أن يكتفى بالإقامة فى المدينة كما كان فى مكة واعظاً مرشداً .. معولاً على حماية من عادوه من أهل المدينة منتظراً ماتفعل قريش ومن حول يثرب من الأعراب .. فإن أحسنوا وتركوه فى عزلته كان لهم الفضل .. وإن جاءوا فقضوا عليه كان له أجر الشهادة ولهم فخر النصر.

وأما الطريق العامل .. فهو أن يدرك هذا الخطر ويعمل على منعه .. ويقوم على دعوته مناضلاً مجادلاً مجاهداً حتى يفوز بغايته ويضمن للذين آووا ونصروا والذين جاهدوا معه السلامة والعزة .

لم يكن محمد ﷺ من الوعاظ الذين يمرون على الحياة يلقون إلى الدنيا كلمة الخير .. ثم لاينظرون أذهبت مع الريح أم بقيت ؟ فهو بمقتضى رسالته ومروءته ورجولته الكاملة شخص آخر ، هو الجد فى صورة رجل .. والإيمان العامل الراسخ ينسف الباطل نسفاً

ماجاء محمد ﷺ المدينة ليبنى صومعته .. ويسأل المشركين واليهود حمايتها .. فلم يكن ذلك بمقتضى طبعه وفطرته .

---

(١) بطل الأبطال ص ٨١ – ٨٢ .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٩ /٣٩٩٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٩٩ - ٨

١ /٧٩ /١٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

